الباب الخامس

الاستعمار البرتغالي في شرقي أفريقيا

الفصل الأول

البرتغاليون والصراع الدموى

إذا كان قد قدر للإمارات الحبشية الإسلامية، أن تواجه خط الزحف الحبشى الهضبى الذى انحدر من الهضبة لكى يحتوى السهل الإسلامى، وذلك بمساعدة القوات البرتغالية التى تدخلت فى القتال الدائر بين القوى الإسلامية، بقيادة احمد القرين المشهور بالأشول أيضا ، حيث إن القوات البرتغالية والأسلحة البرتغالية هى التى حسمت القتال لصالح الأحباش النصارى، فإن تلك الإمارات الجنوبية قدر لها أن تواجه الزحف البرتغالى الزاحف من البرتغال لمحاصرة المد الإسلامى، بعد أن كانت تلك الإمارات قد قدر لها أن تمارس سيادتها، وتنعم بالاستقرار والهدوء والازدهار فى ظل بعدها عن أى صراع خارجى ، إلا ما ندر من صراع بين الإمارات بعضها البعض .

ولقد كانت حركة الكشوف الجغرافية التى استهلها الملاح هنرى، الذى كان كارهاً حاقداً ومتعصباً ضد الإسلام، هى التى مهدت الطريق إلى البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح، ومن ثم فبدأت الدعوة الإسلامية تصطدم بالحقد الصليبى، الذى خرج من بلاده ليقود حربا دينية ضد الإسلام ورجاله .

وكان فاسكودى جاما قد وصل إلى نهاية القارة عام ١٤٩١م، ودار حول القارة الأفريقية حتى وصل إلى الساحل الشرقى ، ورسا فاسكو دى جاما بأسطوله عند مصب نهر، اطلق عليه اسم نهر الرحمة، وقضى به عشرون يوماً، أبحر بعدها حتى وصل إلى ثغر موزمبيق فى مارس ١٤٩٨م؛ حيث وجد أربع سفن راسية فى الميناء، محملة بالتوابل والفضة والحرير قادمة من الهند، ولكنهم تعجبوا حين شاهدوا سكان هذه المدن فى شرق أفريقيا، على غير ما ألفوا فى شواطىء غرب أفريقيا؛ حيث السكان عراة الأجسام، ولكنهم هنا يرتدون الملابس القطنية الملونة، ويرتدى بعضهم الحرير، وقد تدلت سيوفهم وخناجرهم من أحزمتهم العريضة ، واتصل البرتغاليون بحاكم المدينة، وأعلموه عن عزم البرتغال على صداقتهم ، وقام حاكم موزمبيق بالكتابة إلى صهره حاكم ممبسا، ليكون هو الآخر صديقا لهم ويبذل لهم، العون والمساعدة .

وأبحرت الحملة إلى مالندى؛ حيث استقبلت استقبالاً طيباً؛ حيث كان الدليل الهندى قد تكلم عنهم كلامًا طيباً مؤكداً لحاكمها أنهم مسالمون ، كما استقبل رجال الحملة الحاكم استقبالاً وديًا ، وكذلك حصلوا منه على إذن بإقامة عمود يسجل وصول الحملة .

وبعد فاسكو دى جاما، تم تعيين فرنسيسكو الميدا بدلاً منه، ولقد كان كل همه موجهاً إلى القضاء على العرب بسفنهم الصغيرة وقلة وسائل دفاعهم ، ولذا عزم على تخريب القواعد العربية والإسلامية فى شرق أفريقيا فبدأ الميدا بالهجوم على كلوه، وكانت مدينة عربية زاهرة آمنة فأستولى عليها بعد قتال عنيف فى الشوارع والطرقات وداخل المنازل، وفوق سطوحها، وبعد أن شبع البرتغاليون سلبًا ونهباً وذبحاً وتقتيلاً ، نقلوا إلى السفن كل نفيس فى المدينة من ذهب وفضة وعاج وحرير وافاويه، وأشعلوا النار فى المدينة، وتركوها حفرة من الجحيم .

ثم سار الميدا إلى موزمبيق، وهى مدينة عربية أخرى، فعل فيها مثل ما فعل فى كلوه ، ولذا فقد استمر الصراع فى موزمبيق وشرق أفريقيا بين البرتغاليين والعرب والمسلمون زهاء قرنين من الزمان ، لكن البرتغالين توصلوا إلى عقد اتفاق مع أحد الزعماء، سواء من الأفارقة أو العرب، يبطل استعمال السلاح، وبدأت ظاهرة استعراض القوة البرتغالية عن قيام سفن حربية برتغالية لزيارة الموانىء وإقامة زعيم موالٍ لها فى كل بلد ، على الرغم مما قدمه العرب من كرم الضيافة وحسن الاستقبال للبرتغاليين ، إذ نجد أنه عندما قام دى جاما بقدومه إلى شرق أفريقيا ، لم يجد من يحسن استقباله غير أهل مالندى وسلطانهم، ولم يحاول البرتغاليون الاتصال بالأهالى الأفريقيين فى الداخل، سوى فى المنطقة الواقعة بين سوفالى ولكيمان ، وذلك خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، أما فيما عدا ذلك من المناطق، فقد اكتفوا بالتعامل مع السواحيليين سواء من العرب أو غيرهم ، فقد أطلق عليهم البرتغاليين لفظ Moors أى المغاربة ، وقد وجد البرتغاليون فى هذه المدن الحكومية. درجة عالية من الحضارة، لم يكونوا يتوقعونها ، اذ وجدوا بيوتاً مبنية فى الحجر، وجواً من الرقة فى المعاملة فى الأسواق المحلية .

وكانت كلوه صاحبة السيادة البحرية وحضارة شرق أفريقيا تمتد إلى ألف عام سالفة، وسكان المدن خليط من العرب والبانتو والفرس والهنود، وقد تفرق فى هذا الخليط من السكان، على الرغم من بقاء السيادة السياسية فى يد العرب، الذين كونوا الطبقة الارستقراطية، وعمل السكان السواحليون فى الوساطة التجارية بين الهند والشرق الإسلامى .

وكانت المنسوجات القطنية والخرز وبعض المعادن مادة هذه التجارة، مقابل ما يحصلون عليه من الذهب والعاج ومنتجات الإقليم ، وقد تركز اهتمام البرتغاليين على موزمبيق، بسبب ما كان يشاع عن ثروتها من الذهب، ثم فى ميناء موزمبيق، التى أصبحت سريعاً ملجأ للسفن القادمة، التى تسير بين الهند والبرتغال .

ولقد كان لاحتلال البرتغال لساحل زنجبار من الآثار العميقة على الساحل كله، بل انعدم تماماً فى الداخل ، إذ كانت أهداف البرتغاليين السيطرة على التجارة البحرية، وأخذها من أيدى التجار العرب، ولم يجعلهم هذا الهدف فى السنوات الأولى من القرن السادس عشر يذهبون إلى الهند جزر الهند الشرقية فقط ، بل إلى الساحل الشرقى لأفريقيا، وإلى مفتاح البحر الأحمر والخليج العربى؛ فشيدوا قواعدهم فى سفالا وكلوه وهرمز ، وهكذا استقر البرتغاليون على شواطىء موزمبيق وزنجبار وبمبا ومبسا، ومجموعة جزر لامو، ولقد اقتصر هدفهم الأساسى فى محاربة الإسلام، والقضاء على قوته، وإجهاض الإمارات الإسلامية، وكسر حدة الإمارات الشمالية؛ حيث استطاعت البرتغال عام ١٥٤٢م أن تساعد الحبشية المسيحية، وأن تمنع القوة التركية الموجودة فى سلطنة عدل الصومالية من دخول المملكة الحبشية المسيحية ، وكذلك كان هدفهم فى المنطقة أيضا الحصول على ذهب الزمبزى وقاعدة موزمبيق البحرية .

وقد حدث أن تحولت تجارة الذهب، فأخذت طريقها إلى أوربا، وذلك بعد سنوات قليلة من الاحتلال البرتغالى هناك، عن طريق رأس الرجاء الصالح، وغرب أفريقيا وصولاً إلى أوروبا .

ولقد كان البرتغاليون والإسبان قد تبعوا المسلمين فى بعض ممتلكاتهم، بعد أن تخلصوا من حكمهم فى شبه جزيرة ايبيريا (الأندلس) ويرتبط مجيء البرتغاليين إلى شرق أفريقيا بحركة قدومهم الأولى إلى البحار الشرقية ، مع دوران فاسكو دى جاما الأول حول القارة الأفريقية، ووصوله إلى مدينة سفالة، أول مدينة عربية إسلامية فى شرق القارة .

وقد رحب بقدومه حاكم المدينة من قبل سلطان كلوه، ظنّا منه أن الاسطول يتبع الأتراك العثمانيين المسلمين، أو مسلمى الغرب (الأندلس)، ولكن عندما وصل إلى كلوه كان قد افتضح أمره وعرف مقصده فتلقته المدينة بإطلاق النار، وبدأت مرحلة من الصراع الطويل العنيف بين البرتغاليين والإمارات الإسلامية، الواقعة على سواحل أفريقيا الشرقية؛ بحيث يمكن القول أن مسرح الحرب الصليبية قد انتقل فى القرن السادس عشر من البحر

الأبيض المتوسط إلى المحيط الهندى، وانتقلت معه جميع الفظائع التى تميزت بها تلك الحروب فى إحراق المدن واسترقاق للسكان، والاستيلاء على السفن التى تحمل الحجاج إلى مكة المكرمة وحمل ركابها اسرى حرب .

وكانت تجارة الشرق يومئذ فى يد العرب من عمان واليمن، وبقية البلاد العربية الغربية، فصارعهم البرتغاليون فى عنف وقسوة، واستطاعوا أن يحتكروا التجارة لأنفسهم، ويضعفوا ما كان للعرب فيها من نشاط ظاهر، واتسم الصراع الذى نشب بين العرب والبرتغاليين بنزعة دينية قوية وتعصب صارخ ، بعد أن كانت هذه المدن الساحلية الإسلامية الجنوبية الممتدة من مقديشيو شمالاً حتى سفالة جنوباً، تختلف عن المدن الشمالية، فهى لم تجد دولة مسيحية تنازعها لقمة العيش وتقف لها بالمرصاد ، ومن هنا أتاها الصليبيون (البرتغاليون)، ليس عن طريق البر، كما كان يفعل الأحباش فى الشمال ، إنما عن طريق البحر فى ركاب البرتغاليين، الذين ظهروا فى المحيط الهندى، فنحن نعلم أنه قبل فاسكو دى جاما، كان دياز البرتغالى قد استطاع الوصول إلى رأس الرجاء الصالح عام ١٤٨٦م ، ثم كان فاسكو دى جاما- كما سبق القول- قد وصل إلى المدن الغربية على ساحل المحيط الهندى (ساحل شرق افريقية) فى موزمبيق ومالندة ، ثم بدأ الهجوم الصليبى البرتغالى من الجنوب، واستغل الفاتحون الصراع التقليدى بين مالندا و ممبسا؛ فأخذوا يقاتلون هذه المدن الواحدة إثر الأخرى، ولكن هذا الميدان الجنوبى لم يشهد ولم تظهر به شخصية قوية، تكبح جماح البرتغاليين، كما ظهر الإمام احمد بن إبراهيم (القرين)؛ لكى يوحد جهود المسلمين ويزكى الحمية فى نفوس المجاهدين لمواجهة هذا العدو الصليبى الحاقد المتعصب .

ولقد كان ظهور البرتغاليين بداية صراع دموى عنيف، استمر أكثر من قرنين من الزمان، ولم يكن البرتغاليون يريدون الاستقرار السلمى والتجارة ، إنما كانت أغراضهم صليبية واضحة، وهى محاربة الإسلام والقضاء عليه فى كل مكان، ومنعه من تحقيق ادنى تقدم ، كما أن الحصول على اكبر قدر من ذهب سفالة، والسيطرة على المحيط الهندى، وطرد المسلمين من المحيط والبحر، وانكماشهم داخل بلادهم والقضاء على احتكار المسلمين لتجارة الشرق، كان من اهدافهم الأساسية .

وكان البرتغاليون يحقدون على المسلمين أشد الحقد ، كما كانوا يبحثون عن الذهب والثراء الواسع وتوابل الشرق، وقد وجدوا فى هذا الساحل العربى الإسلامى هدفهم، الذى يسعون إليه، دولاً وإمارات إسلامية، يحكمون رقعة واسعة وطويلة من الساحل ودولة فسيحة،

كما وجدوا مظاهر للثراء الغنى والثروة فراحوا يحتلون الساحل ويسيطرون عليه ، وقد ساعدهم على ذلك بعض انحرافات من القادة، الذين أرادوا أن يستعينوا بهم فى صراعهم ضد سلطان الحكومة المركزية، صاحبة السيادة فى ذلك الوقت على الساحل، وهى سلطنة كلوه، وانتهى الامر بأن خضعت أكثر الإمارات الإسلامية إلى البرتغاليين واعترفت بسيادتهم، ودفعت لهم الجزية .

وهكذا استطاعت البرتغال أن تحقق أهدافها من أثر العوامل التى حركتها للكشف الجغرافى، فى رغبتهم فى إحكام تضييق الخناق على المسلمين؛ اذ إنه كان الانتقام من المسلمين الذين حكموا الأندلس وشبه جزيرة أيبريا فترة طويلة من الزمن، والبحث عن مواطن الذهب والإتصال بالمملكة المسيحية فى الحبشة من العوامل التى دفعت البرتغاليين إلى المساهمة بدور وافر فى حركة الكشوف الجغرافية ، ومن هنا كانت منطقة شرق أفريقيا الشرقية المواجهة للجزء الجنوبى الغربى من المحيط الهندى، تحقق جميع هذه الأهداف بالنسبة للبرتغاليين فالامارات التى تنتشر على سواحلها عربية كانت أو سواحيلية مسلمة، ومناجم الذهب موجودة خلف هذه الإمارات، وقد ظهر أن العرب يستفيدون من هذه المناجم، ثم أن مملكة القس يوحنا تقع قريبة منها فى بلاد الحبشة، كما تصور البرتغاليون ذلك.

واتجه البرتغاليون فى بداية الأمر إلى اتخاذ ساحل شرق أفريقيا، بمثابة قاعدة ملاحية فى الطريق إلى الهند ، ثم تحول هدفهم إلى السيطرة الكاملة على ساحل شرق أفريقيا، وهكذا قام البرتغاليون باحتلال الساحل وعزله عن الداخل، الذى كان يمده بسلعه التجارية، والتى كانت تصدر بدورها إلى موانىء الخليج العربى والهند والشرق الأقصى، وكذلك اتجاه البرتغاليين إلى إثارة الحروب والمنازعات الأسرية بين حكام الساحل، والهدف من ذلك إضعاف الزعماء والرؤساء ليؤول للبرتغاليين السيطرة فى نهاية الأمر .

وهكذا كانت من أبرز نتائج ذلك الوجود البرتغالى، أن تحولت التجارة الشرقية عن طريق الخليج العربى والبحر الأحمر وغيرها من الطرق البحرية والبرية التقليدية، إلى ذلك الطريق البحرى المباشر عن طريق رأس الرجاء الصالح مباشرة إلى أوروبا، وكانت تجارة الشرق بين أيدى، العرب فصارعهم البرتغاليون بالعنف والقسوة، واستطاعوا أن ينزعوا منهم تلك التجارة، وأن يضعفوا ما كان لهم فيها من نشاط ظاهر ، بالإضافة إلى أن العرب كانوا يسيطرون على تجارة المحيط الهندى منذ عدة قرون، فلم يكن يترامى إلى ذهنهم بأن تلك السفن القليلة القادمة من أوروبا من الممكن أن تشكل خطراً لثروتهم، أو على النفوذ الذى كان يتمتعون به

على تجارة الشرق، ولكن لم يلبث أن اتضح لهم بعد ذلك بقليل أن رحلة فاسكو دى جاما تبعها تسلط عسكرى، واحتكار اقتصادى بالغ .

وكما سبق القول.. فقد لقى البرتغاليون ترحيباً من العرب والسواحيلية فى بداية الامر، إلى أن وضح لهؤلاء حقيقة ما يضمرون، وأدركوا أنهم يريدون الانقضاض على تجارتهم والاستيلاء على بلادهم، فتحول الود إلى عداء وثورة. وعلى كل حال فقد تمكن البرتغاليون من الاستيلاء على الساحل فيما بين عام ١٤٩٨ - ١٦٩٨؛ أى فى خلال قرنين من الزمان، وآلت إليهم تجارته وموارده، واستفادوا من مصادر ثرواته من الذهب والعاج والرقيق الذى جلبوا منه الشىء، الذى لا يقدر. وقد اختارت البرتغال لهذا الغرض رجالاً أعدوا اعداداً تامًا؛ بحيث كانوا من الضباط البرتغاليين، الذين يمتازون بالقسوة والطغيان والعنف والطمع، ويتظاهرون بالحكمة والتعقل فى الحصول بسهولة على كل ما يريدون، وإذا ظهر الرفض تحولوا إلى وحوش كاسرة مفترسة .

لقد بدأ احتكاك البرتغاليين بجنوب الساحل الشرقى فى موزمبيق وسفالة؛ حيث اعتقد السكان فى بداية الأمر أن القادمين أتراك مسلمين ، وقد كان معظم شرق أفريقيا فى ذلك الوقت، تابعاً لسلطان كلوه، وأنه كان يعين الحكام من قبله ولاة على مقاطعات الساحل. وقد نجح فاسكو دى جاما فى الوصول إلى معظم هذه الموانىء كسفالة وكلوه وزنجبار ومالينده ، ولكن عندما تبين لأهالى موزمبيق حقيقة البرتغاليين، برزوا لهم بالعداء حتى اضطر فاسكو دى جاما إلى مغادرة موزمبيق، بحثاً عن مكان آخر، فاتجه إلى مالندة، وهناك وجد حاكماً عربياً يدعى « وجى راج »، لم يستطع الخروج إليه من مقره لكبر سنه، وإنما أوفد إليه أحد أبنائه، وطلب فاسكو دى جاما الإقامة فى مالندا بعض الوقت .

وهكذا كان البرتغاليون هم الرواد الأوائل فى حركة الاستعمار الأوروبى لشرق أفريقيا، فقد استطاعت هذه الإمارة البحرية الصغيرة أن تستولى فى وقت قصير على الطريق التجارى المؤدى إلى الهند، وأن تحتكر تجارة الشرق كله .

وقد أخذ البرتغاليون ينشئون على ساحل أفريقيا مستعمرات ومحطات تجارية وحصوناً وثغوراً وكان البوكيرك القائد البرتغالى، الذى اعتقد أن الطريق إلى الهند لن يكون آمنا إلا بإنشاء هذه المستعمرات، كما رأى أن تأمين التجارة يقتضى الاستيلاء على ثلاثة مواقع استراتيجية مهمة، هى.. ملقا وعدن وهرمز، وذلك لخنق المسلمين وتحويلهم عن مناطق شرق

أفريقيا، حيث كانت هى المواقع الثلاث هى باب الخروج للعرب إلى شرق أفريقيا، وكانت تعد المفاتيح للطريق إلى البحر الأحمر والخليج العربى وجزر الهند الشرقية. اما ساحل شرق أفريقيا، فقد رأى البوكيرك ضرورة احتلاله وإخضاعه للسيادة البرتغالية، والسيطرة على نشاطه التجارى، فألقت سفنه مراسيها عند كلوه عام ١٥٠٢م، وأرغم سلطانها على الاعتراف بالسيادة البرتغالية، ودفع جزية مقدارها ألف وخمسمائة مثقال ذهب سنوياً .

وقد استفاد البوكيرك من نجاح فاسكو دى جاما؛ حيث كان ذلك النجاح حافزاً لملك البرتغال عمانويل على تجهيز حملة كبيرة؛ ليست بهدف الكشف هذه المرة، وإنما يهدف السيطرة التامة ووصلت الحملة البرتغالية فعلاً إلى موزمبيق وكلوه، وحاول قائدها أن يعقد معاهدة مع سلطان كلوه، ولكن السلطان رفض مصادقة البرتغاليين ومحالفتهم، وأخذ يستعد للدفاع عن بلاده، فاتجه القائد البرتغالى إلى ماليندە؛ حيث سلم شيخها الهدايا التى كان قد بعث بها الملك عمانويل ردا على بعثة حاكم ماليندى ، وقد رأى حاكم ماليندى أن يستعين بالبرتغاليين فى القضاء على مناقشة شيخ ممبسا، وكانت العداوة لا تنقطع بين مالندى وممبسا، فشيخ مالندى يحاول أن يؤكد لنفسه أصلاً السيطرة على مشايخ الموانىء الساحلية جميعاً، مدعيا أنه من سلالة حكام حكموا المنطقة الساحلية قديما ، أما شيخ ممبسا، فقد كان من أقوى مشايخ الساحل سلطة ونفوذاً بعد سلطان كلوه .

ولم تقتصر المنافسة على مالندى وممبسا، إنما انتقلت عدوى التنافس وعمته إلى جميع الموانى الساحلية، إذ انطوت تحت زعامة هذه المدينة، أو ذاك معظم الموانىء والجزر فى ساحل شرق افريقية .

ويذكر أنه عندما تقدم البرتغاليون إلى ميناء أوجه شمال ماليندى ، فإن حاكم الميناء اعتذر لقائد الاسطول البرتغالى، بأنه لا يستطيع أن يدفع جزية له أو لملك البرتغال؛ لأنه يخضع للسلطان المملوكى الذى يحكم مصر فى القاهرة .

وعلى كل حال.. فإنه فى الوقت الذى وصل فيه البرتغاليون إلى شرق أفريقيا أن هذه الموانىء والمدن والإمارات والجزر، فإنها كانت فى منازعات ومنافسات مستمرة، وكان يحركها فى ذلك الدوافع العرقية والأسرية والمذهبية والدينية والاقتصادية والتجارية ، فضلاً عن دوافع السيادة والرغبة فى السيطرة على الساحل، ومن المؤكد أن هذه المنازعات كانت قائمة قبل مقدم البرتغاليين بوقت طويل .

وفى عام ١٥٠٢ تم إخضاع كلوه والسيطرة النهائية عليها عام ١٥١٢م، وبين أعوام ١٥٠٣ ، ١٥٠٥م تم تأكيد السيطرة البرتغالية على معظم موانى الساحل ، حيث جاء دور السيطرة على زنجبار، فدخلها البرتغاليون، وفرضوا السيادة البرتغالية عليها، وجزية سنوية مقدارها مائة مثقال من الذهب، وفى عام ١٥٠٥م خرج أسطول برتغالى، يتألف من عشرين سفينة؛ بقصد إنشاء مستعمرات فى ستة مراكز حربية، تمتد من جنوب شرق أفريقيا إلى جنوب غربى الهند، وكذلك السيطرة على سفالة والسيطرة على مناجم الذهب ، ثم جاء دور مدينة ممبسا، التى دافع المسلمون عنها دفاع الأبطال، ولكنهم هزموا آخر الامر، ونهبت مدينتهم وخربت ثم أحرقت. وقد أرسل سلطان ممبسا يحذر أهل مالندى، الذين كانوا يضمرون لبلاده الكراهية، أكثر مما كانوا يضمرون للبرتغاليين. وفى عام ١٥٠٦م أبحر إلى شرق أفريقيا أسطول برتغالى من موزمبيق، حتى بلغ الساحل الغربى من مدغشقر ، ثم يمم شطره نحو كلوه ومالندى ، وأخضع مدن لامو واوجا وبراوة، التى رضيت أن تدفع الجزية للبرتغاليين، ثم جاء دور مقديشيو، وكانت أقوى هذه المدن وأغناها. ولما ألقى البرتغاليون مراسيهم من مينائها، وجدوا الساحل يزخر بالمقاتلة، واضطر البرتغاليون إلى مغادرتها، وساروا إلى جزيرة سقطرة واستولوا عليها، وأنشئوا بها قلعة برتغالية، تتحكم فى مدخل البحر الأحمر، ولم يبق أمام البرتغاليين إلا خطوة واحدة لاتمام سيادتهم، فاستولوا على موزمبيق عام ١٥٠٧م، واتخذوها قاعدة عسكرية، وأنشئوا فيها قلعة ومستشفى وكنيسة ومستشفيات للجند، وغدت موزمبيق أهم مدن ساحل أفريقيا فى العهد البرتغالى .

وبذلك تم للبرتغاليين فتح شرق أفريقيا فى أقل من عشر سنوات، وخضعت لهم كل المدن الساحلية إما بقبولها السيادة البرتغالية ودفع الجزية، وإما بالقضاء عليها، ولم ينج من هذه المذبحة إلا مدينة مالندى حليفة البرتغاليين. وفى عام ١٥٠٩م عين ملك البرتغال حاكماً عاماً للمستعمرات البرتغالية فى أفريقيا الشرقية، وساحل بلاد العرب، ولم يبق لإتمام هذه السيادة إلا مقديو ومدغشقر، اللتين ظل البرتغاليون يتطلعون إليها، لولا انشغالهم بمشروعاتهم فى الخليج العربى بعد أن نهبوا مسقط وهرمز، وبعد أن هزموا الأسطول المصرى فى موقعة (ديو البحرية عام ١٥٠٩)، فإنه لم يبق أمامهم إلا ثغر عدن، وهكذا تحقق مشروع البرتغاليين الذى رسمه البوكيرك، فاستولى على ملقة ومات، وبذلك انتهت سيطرة العرب على شرق أفريقيا والمحيط الهندى وانتقلت إلى البرتغاليين ، على أن البرتغاليين لم يقضوا على العرب قضاءً مبرماً فإنهم لم ينشئوا إلا ثلاث مستعمرات رئيسية فى كلوه

وموزمبيق وسفالة، وإن كانوا قد انشئوا مستعمرات أخرى فرعية فى زنجبار وبمبا ، أما سائر المدن الساحلية فقد احتفظت بحكوماتها ونظمها المحلية مقابل دفع الجزية، وكانت المدن الشمالية شمال كلوه تتمتع بحرية التجارة، أكثر مما كانت تتمتع به المدن الجنوبية، على حين ظلت التجارة البرتغالية على ما كانت عليه، وكانت قوافل العرب تسير إلى الداخل .

وبمثابة ذكر سير قوافل العرب للداخل فى ظل الاستعمار البرتغالى.. فإن هناك حقيقة تاريخية مهمة وهى أنه قد صحب الغزو البرتغالى لمدن ساحل شرق أفريقيا انتشار الإسلام بين القبائل الداخلية؛ بسبب فرار العرب والمسلمين إخوانهم من الفرس والهنود والسواحيلى من الساحل إلى الداخل؛ خوفاً من بطش البرتغاليين بهم، بعد أن شاهدوا عوامل التنكيل والحرق والتدمير ، وهذا الانتشار الواسع للاسلام داخليًا تلحظه أكثر بالنسبة لاعتداء البرتغاليين على المدن الصومالية لمقديشيو وزيلع وبربرة، واتجاه المسلمين للداخل؛ حيث انتشر الإسلام بين القبائل الصومالية بصفة خاصة .

ويكفى أن نقول إنه لم تنج مدينة من هذه المدن المزدهرة من عبث الطغاة، فقد أحرقت ممبسة خمس مرات، ووضعوا السيف فى رقاب الناس، ومن بقى أسروه، وأعملوا السيف فى كلوه، وطردوا اهلها من ديارهم، ودمروا مساجد لامو وباتا، وقتلوا الشيوخ والأطفال والنساء، وفرضوا الغرامات الباهظة، واستطاعوا فى سنوات قلائل بالسيف والحديد والنار والتعذيب وإراقة الدماء أن يقضوا على كل مراكز الحضارة العربية الإسلامية وثقافتها الزاهرة، وأن يقضوا أيضا على كل الوكالات والمؤسسات التجارية، التى انشأها العرب فى تلك البقاع .

وصفوة القول أنه لم تكن للمشروعات البرتغاليةنتائج ايجابية فى الميزان السياسى الواضح؛ ذلك لأنهم أشعلوا حربًا صليبية ضد الإسلام ورجاله؛ حيث كان ذلك الخطر الصليبى البرتغالى مدعمًا بالأسلحة الحديثة، وكان يملأه حقد دفين على الإسلام، بعد أن شاهد مظاهر الحضارة الإسلامية الراقية على أرض الأندلس، وكان هذا الهجوم البرتغالى على شرق أفريقيا تحدوه الروح الصليبية المتعصبة، فخربوا المدن الإسلامية بالقنابل والمدافع، وهكذا كان ظهور البرتغال فى شرق أفريقيا بداية صراع دموى عنيف، استمر اكثر من ثلاثة قرون؛ لأنهم كانوا يهدفون إلى القضاء على كل أثر إسلامى، وتدمير قوته الحضارية والروحية، كما حدث فى الأندلس، والحصول على ذهب امارة سفالة، والسيطرة على المحيط الهندى، وطرد المسلمين من البحر الأحمر، والقضاء على قوة المسلمين الدينية والتجارية.

وقد كان رجال البرتغال يمتازون بالحقد الدفين والطمع والقسوة، وتملأ صدورهم كراهية شديدة للاسلام، ويكفى -كما سبق القول- أنه لم تنج مدينة من مدن شرق أفريقيا الزاهرة من كراهيتهم، حتى أنهم أحرقوا مدينة ممبسا خمس مرات، وواصلوا استعمال السيف فى رقاب الناس، ومن بقى من أهلها أخذوه اسيراً ، وكذلك أعملوا السيف فى أهل كلوه، واستطاعوا فى سنوات قلائل بالسيف والحرق والتدمير وإراقة الدماء أن يقضوا على هذه المدن الإسلامية .

ولقد كان مخططهم هو تكثيف الدعوة للإنجيل وللمسيح، والقضاء على كل أثر للإسلام فى تلك الديار، وذلك لقرب هذه البلاد من البلاد العربية الإسلامية والجزيرة العربية والشرق الإسلامى؛ وذلك لإقامة جدار مسيحى ، قوى وعازل يمنع الدعوة الإسلامية والمد الإسلامى من اختراق القارة الأفريقية من هذا الساحل الشرقى، والوصول بالقرآن الكريم وبرسالة الإسلام ووقوع المصحف الكريم فى أيدى الزنوج الأفارقة، وذلك لمحاصرة الإسلام فى دياره؛ تمكيناً للقضاء عليه ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾،﴿وكلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون فى الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين﴾.

وعلى هذا فما أن تمت الفتوحات، حتى شرع البرتغاليون فى نشر الدين المسيحى وتأسيس الأسقفيات، وبناء الكنائس، والأديرة والمراكز التبشيرية، وإرسال الرهبان والقساوسة، وأخذوا يبشرون بالإنجيل واتخذوا مركزاً لهم فى موزمبيق، وكذلك مراكز فى ماليندى، وفى جزيرة سوقطرة، وبمبا وزنجبار، وامتدت البعثات التبشيرية إلى ممبسا والساحل كله .

بل أنهم قاموا ببناء أكبر قلعة على الساحل، عرفت باسم قلعة السيد المسيح ، وبذلك فإنه لم يبدأ القرن السادس عشر، ومع نهاية القرن السابع عشر إلا وظهرت رعية مسيحية سوداء فى شرق أفريقيا وأثمرت جهود البرتغال الصليبية التبشيرية، بعد أن انحسرت الدعوة الإسلامية وانكسر المسلمون أمام الخطر الصليبى البرتغالى .

وهكذا ركز البرتغاليون فى شرق أفريقيا على القسم الجنوبى من الممتلكات الإسلامية، واكتفوا من الجزء الشمالى بالاعتماد على محالفة حكام ماليندى، الذين كانوا يتلقون المساعدات العسكرية من البرتغاليين ، وهكذا توافد على هذه المنطقة رجال الدين البرتغال والمتعصبين للصليبيين ، كما وفد بعض التجار وبعض المستوطنين، الذين كونوا مستعمرة

موزمبيق، بينما توقفت حركة الهجرة الإسلامية العربية والصلات العربية الإسلامية مع الساحل، وترك المنطقة الجنوبية كثير من المسلمين، الذين اتجهوا للشمال والداخل، ولذلك نلاحظ أنه عندما تخلص العرب فى القرن الثامن عشر الميلادى من الحكم البرتغالى، بقيت موزمبيق مستعمرة برتغالية، حتى حصولها على استقلالها عام (١٩٦٨).

على أنه منذ عام ١٥٠٩ وحتى تدخل عرب عمان فى أواخر القرن السابع عشر ، اضطرت معظم الإمارات الإسلامية فى القسم الشمالى من ممبسا حتى رأس جردافون إلى دفع الجزية للبرتغاليين، والاعتراف بسيادتهم أحياناً وارتاح البرتغاليون لهذا النظام المالى؛ لأنه كان من بين أهدافهم الاستقلال المالى والاحتكار التجارى؛ لذلك جلبوا على أنفسهم كره السكان الأصليين ، كذلك فإنه مما يلاحظ على الوجود البرتغالى فى شرق أفريقيا إذ انظرنا إلى الأحداث، ذلك الاتفاق الذى تم بين البرتغاليين وشيخ ممبسا على عدم الاتصال بالأتراك العثمانيين؛ مما يدل على أن الدولة العثمانية فى ذلك الوقت لم تكن لتهمل شأن الدفاع عن الديار الإسلامية، ولا سيما تلك المنطقة القريبة من الأراضى الحجازية المقدسة، وهذا يعطى الدليل على إحساس الأتراك المسلمين بالخطر الصليبى المسيحى البرتغالى فى هذه الأرجاء البعيدة .

ومن المعروف أن الأتراك كانوا قد بسطوا نفوذهم الإسلامى إلى عدن عام ١٥٣٨م؛ ليتخذوا منها قاعدة لمهاجمة البرتغاليين فى المحيط الهندى، ويقال إنهم سيطروا على سوقطرة عام ١٥٣٥م، ولكنهم لم يلعبوا دوراً فعالاً فى دفع البرتغاليين عن شرق أفريقيا إلا فى أواخر القرن السادس عشر، كما أن ذلك لم يتم فى أول الأمر بصورة مباشرة، بل عن طريق أحد رؤساء البحرية على ميرال بك الذى اتخذ مدينة جدة قاعدة له وعندما ظهر امام شواطىء أفريقيا الشرقية عام ١٥٨٥م، انبعث روح الأمل بين سكانها المسلمين، وأعلن أمراء الموانىء من مقديشيو حتى ممبسا أنهم يدينون بالولاء للسلطان العثمانى مراد بك الثالث ، لفيليب الثانى ملك إسبانيا ، وذلك لأن هناك ظروفا كانت قد هددت سلطان البرتغال، بسبب منافسة الدول البحرية لها ، ثم بسبب أن البرتغال نفسها فقدت استقلالها، حين ضمها الملك فيليب الثانى إلى عرش إسبانيا عام ١٥٨٠م، بحيث بدأت البرتغال تفقد مستعمراتها الأخرى بعد ضم البرتغال لإسبانيا، وأخذت دول أوربية أخرى تسلك الطريق نفسه الذى سلكه البرتغاليون من قبل .

وقد شجع على ميرال سكان السواحل الشرقية والمسلمين جميعًا على الثورة ضد الوجود الإسبانى ، ولكن هذا الوالى لم يعد لهم، كما وعدهم بأن قوة إسلامية تركية سـ

تأتى قريبًا لهم، وفى مثل هذه الظروف تستطيع الإمارات الإسلامية أن تواصل الثورة ضد الحكم البرتغالى، وسرعان ما استسلمت مرة أخرى، وقبلت التبعية لملك البرتغال وإسبانيا، وقد اتخذت ممبسا وحدها من بين الامارات الإسلامية الصغيرة موقفا مغايراً ورفضت التبعية للبرتغاليين، واستنجدت بعلى ميرال بك عام ١٥٨٨م، فأسرع إليها إلا أنه لسوء حظه خرجت عليه فى هذه الأثناء القبائل آكلة لحوم البشر من حوض الكونغو، ونزلت بالمنطقة الساحلية وأحاطت بمدينة ممبسا فى الوقت الذى وصلت فيه الأساطيل البرتغالية، وألقت القبض على (على ميرال).

وكانت قد خرجت من داخل شرق القارة الأفريقية؛ حيث حوض الكونغو جموع من زنوج الوازمبا، وأطبقت على المدن الساحلية، وأغاروا على ممبسا، وهاجموا الناس وأكلوهم فى المنازل والطرقات ، وفى الوقت نفسه رست السفن البرتغالية فى ميناء ممبسا لتضربها بالقنابل، وهرب الناس من المدينة بعد أن اجتاحها قوم آكلى لحوم البشر، وألقوا بأنفسهم فى البحر هرباً منهم، وذلك لكى يصلوا إلى السفن الراسية بالميناء ليحتموا بها، ولكن البرتغاليين حصدوهم بالرصاص .

وهكذا قضى على آمال مسلمى شرق أفريقيا للتخلص مرة ثانية من الحكم البرتغالى، فعادت جميع الموانىء للخضوع، باستثناء مقديشيو، التى حافظت على استقلالها، وقد يكون ذلك نظراً لقربها من عدن؛ حيث الأتراك العثمانيين، وبعدها عن موزمبيق مقر الحكم البرتغالى. ونتيجة لهذه الثورات المتكررة وتدخل الأتراك فى هذه الأنحاء ، قرر البرتغاليون بناء قلعة ممبسا، التى عرفت باسم قلعة يسوع المسيح ١٥٩٢م، والتى استغرق بناؤها عامين كاملين، سخروا فى بنائها العرب المسلمين والسواحيلية، وكل ما وصلت إليه أيديهم من أفراد وأموال وممتلكات إسلامية ، وقد كافأ البرتغاليون سلطان مالندى، ويدعى الشيخ حسن على ولاءه لهم، فمنحوه إمارة ممبسا إضافة إلى ولايته، وذلك فى العام نفسه، الذى تم فيه بناء قلعة يسوع المسيح .

ويدل اطلاق اسم يسوع المسيح على الرغبة الحقيقية فى نشر المسيحية، وقيادة حرب صليبية ضد المسلمين، إلا أنهم لم يتركوا له الانفراد بإدارة ممبسا؛ فقرروا مرابطة حامية من جنودهم فى القلعة، قدرت بنحو مائة جندى مسلحين بالبنادق، ومعهم بعض المدافع، وعلى رأسهم قائد يسيطر على الساحل كله، من براوة حتى راس دلجادو، وصار لهذه الحامية الإشراف على الساحل الشمالى؛ مما أوشك أن يحول ممبسا إلى قلعة صليبية مسيحية مثل موزمبيق .

ويبدو أن ثورات المسلمين المتكررة واستنجادهم بالأتراك، جعل البرتغاليين يميلون إلى تعميم الإدارة المباشرة؛ مما حداهم إلى تدبير مؤامرة قتل حليفهم الأول فى المنطقة، وهو سلطان مالندى، وحملوا ابنه يوسف وهو لايزال صغيرا فى السابعة من عمره إلى جوا بالهند، وعمدوه نصرانيا وتنشئته تنشئة برتغالية، وغرسوا فى قلبه حب يسوع المسيح والمسيحية والبرتغال، ولقبوه لقب جيرينمبو شيسنجوليا، وفى عام ١٦٣٠ عينوه حاكماً على عرش ممبسا؛ مما يعطى الدليل القاطع، الذى لاجدال فيه ولامراء فى أن الرغبة الحقيقية للسيطرة والاحتلال البرتغالى لشرق أفريقيا، كان محاربة الإسلام والقضاء على كل ما هو إسلامى أو عربى فى تلك المناطق .

وهكذا استخدم البرتغاليون السلاح نفسه الذى فعلوه مع يوسف حسن (سلطان مالندى)، ومع جميع الرؤساء الأفارقة فى المناطق الجنوبية، وهكذا ظهرت صيغة أفريقيا حاكمة مسيحية، وقد لقيت تلك السياسة قدرا لا بأس به من النجاح، إلا أنهم فى هذا الصدد قد تناسوا حقيقة مهمة، وهى أن ابناء الرؤساء الأفارقة ممن كانوا لا يدينون بالإسلام، وكانوا على الفطرة والوثنية، كان من السهل جذبهم إلى المسيحية، وامتصاصهم فى الحضارة البرتغالية، إلا أنه مع الأمراء المسلمين فى الشمال أو الجنوب.. فإن الأمر يختلف كل الاختلاف؛ حيث فشلت جهودهم فى هذا الصدد. ولكن لم يمض وقت طويل على تلك السياسة؛ حتى تأكدت حقيقة قوة الإسلام ومدى تعمقه فى النفس البشرية والإيمان، الذى يضفيه على كل من سمع القرآن يتلى، والمؤذن يؤذن للصلاة ، إذ إن خلع سلطان ممبساً ابو يوسف بن حسن، سابقاً الرداء الذى ألبسه أياه البرتغاليون؛ ففى اغسطس عام ١٦٣١م، واثناء الاحتفال بمرور عام على تولية العريش ، وبعد أن كان قد رتب كل شىء، أعطى إشارة الانتقام بأن رد تحية القائد البرتغال بضربة مفاجئة من خنجره، وقد فعل كل اتباعه الذين معه من الأسرة الحاكمة وأفراد الحاشية وبقية الشعب، الذين حفروا هذا الاحتفال- حيث إن كل السكان كانوا يتسلحون جميعا بهذه الخناجر- هذه الطريقة فى أن يضرب كل واحد منهم واحداً من البرتغاليين، فما هى الا فترة وجيزة حتى كان كل رجل وامرأة برتغالية قد قتل، ماعدا الذين اعلنوا دخولهم فى الإسلام، وخربت الكنيسة بمحتوياتها ، وأخذت الثورة تشتعل فى اغلب المدن الإسلامية، بعد أن علموا بما حدث من امر الحاكم فى ممبسا، والذى عاد إلى دين الله الخالد ، ما عدا زنجبار وباتا .

وفى نهاية العام ظهرت كتيبة فى ست سفن، آتية من جوا بالهند، عليها ستمائة برتغالى جاءت؛ لتعاقب السلطان يوسف على جريمته، وحاصروا القلعة التى كان يتحصن بها مع حاشيته من جنوده العرب والسواحيلية وبعد ثلاثة أشهر فك البرتغاليون الحصار عن

قلعة ممبسا وعادوا أدراجهم إلى الهند ، غير أن نائب ملك البرتغال فى جوا الهندية، لم يتوقف عند هذا الحد ، بل أرسل حملة ثانية لممبسا فى العام التالى ١٦٣٣م، وقد دهش البرتغاليون عندما وجدوا أن القلعة قد أزيلت وصارت حطاماً، ويرجع ذلك إلى أن السلطان يوسف قد شعر بعدم قدرته على مواصلة الحرب النظامية التقليدية ضد البرتغاليين، فأثر اتباع أسلوب جديد هو أشبه بحرب العصابات، وظل يتنقل بين القبائل والقرى الساحلية التى تقع تحت سيادته، ويحث المسلمين على رفع لواء الجهاد الإسلامى المقدس، إلى أن قضى نحبه، دون أن يتم رسالته فى تحريض المدن والموانى على قتال البرتغاليين، وطردهم من ساحل شرق أفريقيا، وكان ذلك عام ١٦٣٨.

وقد نبهت ثورة السلطان يوسف بن حسن سلطان ممبسا؛ اذ أدرك البرتغاليون ضرورة تشديد قبضتهم على القسم الشمالى من ساحل شرق أفريقيا فأعادوا بناء قلعة يسوع عام ١٦٣٩م، واتخذوا منها عاصمة للشمال كموزمبيق بالنسبة للجنوب، وحرموا على الأمراء المسلمين تلقى مهاجرين جدد من العرب والمسلمين ، وهكذا ازداد نفوذهم فى شرق أفريقيا فى الوقت الذى تداعوا فيه كقوة عالمية بحرية ، وأصبح الوجود الإسلامى العربى فى موزمبيق مهدداً بالزوال فى الشمال، كما حدث فى الجنوب؛ أى فى موزمبيق، لولا أن قيض الله للاسلام والعروبة أن تصونه دولة عربية إسلامية ناشئة، وهى دولة اليعاربة فى عمان، أن تخرج البرتغاليين من هذه المنطقة من أفريقيا .

وتقول إنه قبل أن تتدخل دولة اليعاربة فى شرق افريقية ، فإن النفوذ البرتغالى كان قد تقلص فى شرق افريقية، واستردت ممبسا العربية تراءها القديم وشهرتها السالفة ، على أنه قد ظهر عامل لم يكن فى الحسبان؛ إذ رأى البرتغاليون أن قاعدتهم العسكرية فى موزمبيق لا تكفى لصد الأخطار الإسلامية وثورات الأهالى، فأنشأوا قاعدة أخرى فى ممبسا، وأخذوا يشجعون المتقربين الغريبين، ويمدونهم بالمعونة لزراعة الأراضى الصالحة للزراعة، كما استقروا فى مدينة زنجبار، وثبتوا أقدامهم فيها؛ لمنع غارة الأتراك العثمانيين، وبدأت الطوائف المسيحية كالدومنيكان والجزويت يبشرون بالمسيحية، وينشئون المدارس، ويقيمون الكنائس وذلك لخلق رعية مسيحية (راجع كتابنا . أخطار التبشير فى العالم الإسلامى ، فصل التبشير فى شرق أفريقيا)

وقد انتقل مركز النفوذ البرتغالى من مالندى إلى ممبسا، ونقل سلطان مالندى ويدعى الشيخ حسن بن أحمد حاضرة ملكه إلى ممبسا، وبدأ نفوذ الأسرة المالندية الموالية للبرتغاليين ينمو فى ظل الحكم البرتغالى ، بل لقد اخذ يطغى على نفوذ البرتغاليين الذين أحسوا بالخطر.

ولكن ليس معنى هذا أن البرتغاليين قد نجوا من الأخطار ، فقد أخذت البرتغال تفقد ممتلكاتها فى المحيط الهندى، وبدأ الهولنديون يحلون محلهم، ولم يبق أمامهم إلا شرق أفريقيا، فأرسلت ممبسا إلى سلطان عمان اليعاربة السلطان (سلطان بن يوسف) تدعوه إلى إنقاذ المسلمين، كما انقذ أبناء وطنه من قبل .

وعلى هذا فإنه مهما يكن من شيء، فإن الاستعمار البرتغالى فى شرق أفريقيا لم يترك أثرا يذكر، ولا يمكن أن يعزى ذلك إلى سوء المناخ ، فقد كان البرتغاليون غرباء عن البلاد، ولم يبق حكمهم فيها إلا عن طريق القوة العسكرية، كما أنهم لم يحتلوا شرق أفريقيا كله، وإنما أقاموا محطات قليلة، لا يتجاوز عدد سكانها فى كل محطة عن مائة جندى ، وكل ما تركه الاستعمار البرتغالى من أثر هو أنه أساء إلى العرب والمسلمين، الذين استقروا فى هذه البلاد، وأن ضعفهم قد زاد على مر الزمن .

ومن هنا فإن أسلوب البرتغاليين المتعسف ونزعتهم الاحتكارية العنيفة وطريقتهم فى الحكم، قد تركت آثارها السيئة فى مجال العلاقات العربية الأفريقية، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، فقد كان التأثير هنا فى شرق أفريقيا مباشرة، فى ذلك الاصطدام العنيف الذى حدث بين البرتغاليين، وبين المراكز العربية الإسلامية التجارية، والمدن والإمارات التى أسسها العرب، قبل عدة قرون من الغزو البرتغالى .

ولم تكن هذه المدن والإمارات العربية هى التى عانت بمفردها من الغزو البرتغالى، بل لقد عانت من ذلك الغزو البرتغالى أيضاً القوى العربية، التى كانت تعيش فى أطراف العالم العربى؛ خاصة فى سواحل الخليج العربى والجزيرة العربية؛ اذ استهدف البرتغاليون من سيطرتهم على هذه السواحل، التحكم فى الطرق البحرية والتجارية لعملياتهم الاحتكارية، إزاء تجارة الشرق .

وقد استمرت السيطرة البرتغالية على أطراف العالم العربى ما يقرب من أكثر من قرنين من الزمان، تعرضت خلالها الإمبراطورية البرتغالية فى الشرق لعوامل كثيرة من التدهور والإنهيار؛ نتيجة ظهور قوى أوربية جديدة، نازعت البرتغاليين سيادتهم، أو لسبب الانهيار الذى دب فى البرتغال نفسها كدولة؛ نتيجة خضوعها للحكم الإسبانى (١٥٨٠ - ١٦٤٠م) هذا بالإضافة إلى ضعف الموارد البشرية للبرتغال، وهى دولة صغيرة محدودة المساحة والسكان، وعدم قدرتها على السيطرة التامة على هذه الإمبراطورية الساحلية الكبيرة، التى بسطت نفوذها عليها .

الفصل الثاني

عُمان وإنهاء الوجود البرتغالي في شرق أفريقيا

وقد ساعدت هذه الظروف الحرجة التى مر بها الاستعمار البرتغالى على ظهور دولة عربية فتية، فى الجزء الجنوبى الغربى من الخليج العربى، وهى دولة اليعاربة فى عمان (١٦٢٤ - ١٧٤١م)، التى تولت الصراع العربى ضد البرتغاليين. لقد خاض العرب والأفريقيون كفاحاً مشتركاً لتحرير شواطىء هذه المنطقة من شرق أفريقيا من الغزو البرتغالى، ونتيجة للمحاولات الدائبة التى بذلها البرتغاليون؛ لاستعادة سيطرتهم على هذه الشاطىء، ومن هنا كان التجاء سكان الساحل الشرقى لأفريقيا إلى عمان لحمايتهم من البرتغاليين حيث تم وضع الأساس لحكم عربى، امتد على جزء كبير من سواحل شرق أفريقيا

ومن هنا فإنه لا عجب أن يتطلع سكان الساحل الأفريقى إلى أبناء عمومتهم بمنطقة عمان ومسقط؛ لينقذوهم من سطوة البرتغاليين .

ولقد ساعد العرب على التحرر من السيطرة البرتغالية أنه قد استجدت ظروف عالمية، شجعت الإمارات الإسلامية الجنوبية على التحرر من السيطرة البرتغالية، ولفظ النفوذ البرتغالى المتحكم فى رقابهم ، ذلك أنه قد ظهرت قوى بحرية أوروبية تنافس البرتغاليين فى السيادة البحرية فى شرق أفريقيا والمحيط الهندى، وتحاول الانتقاص من سيادتهم؛ حيث كانت السفن الفرنسية والإنجليزية قد تدخلت فى ذلك الميدان البحرى، وظهرت كذلك سفن هولندا ، وبدأت كل من هولندا وإنجلترا ترسلان سفنهما التجارية المسلحة؛ لتنتشر فى تلك المناطق ، وقد كانت تلك الأحداث من الأسباب المباشرة، التى مهدت الطريق لتجرؤ العرب على البرتغاليين، بعد أن شاهدوا سطوة هذه القوى البحرية الجديدة، ومن هنا انتقصت السيادة البرتغالية ، بل إن ذلك ادى إلى القضاء عليهم ، وأخذ الإنجليز يوطدون لأنفسهم مكاناً على الساحل، وفقد البرتغاليون مستعمراتهم وشركاتهم فى الشرق كله والمحيط الهندى وسواحل الهند والخليج العربى .

وهكذا أدت هذه الجهود الأوروبية إلى القضاء على البرتغاليين، الذين لم يبق من إمبراطوريتهم الواسعة إلا مستعمرة جوا الصغيرة بالهند ، وأصبح الإنجليز والهولنديون والفرنسيون فى صراع مستمر؛ من أجل السيادة لمدة قرن من الزمان ، فقد تفوق الهولنديون على الإنجليز، وفى نهاية القرن السابع عشر انتشرت المستعمرات والشركات الهولندية فى الخليج العربى، وعلى سواحل الهند .

وقد أخذ الإنجليز والفرنسيون يدعون وراثة أملاك البرتغاليين ، بالإضافة إلى أن أفريقيا الشرقية لم يرد لها ذكر فى الصراع المرير فى المحيط الهندى، بسبب تحكم البرتغال فى شئونها، وانصراف القوى الكبرى إلى الشرق الأقصى، وظلت ثغور أفريقيا الشرقية مثل ممبسا وكلوه ومالندى، تزاول التجارة بين شرق هذه القارة وبين الهند، وكانت السفن البريطانية تزور موانى شرق أفريقيا فى طريقها إلى الشرق الأقصى؛ طلبا للمؤنة والزاد وتبادل السلع التى تحملها من الهند أو إليها ، لكن بدأ الإنجليز يهتمون بهذه البلاد، ويقدرون أهميتها التجارية، وما تحويه من ثروات قد تدر على بلادهم الربح الوفير، كذلك تطلعت فرنسا إلى وضع أقدامها فى تلك البقاع، أسوة بما تقوم به إنجلترا، وهكذا بدأ النفوذ البرتغالى يتقلص فى تلك الأرجاء .

ولقد ظهر فى ميدان الجهاد الإسلامى شعب فتى عربى، حمل لواء التحرر الإسلامى، فقد تحرر العمانيون منذ عام ١٦٥٠ من السيطرة البرتغالية فى عهد السلطان بن سيف؛ حيث كان عام ١٦٥٨ هو العام الذى تم فيه طرد البرتغاليين نهائيًا من مسقط، ومن الساحل العربى الجنوبى، وكان ذلك على يد عرب عمان، وقائدهم سلطان بن سيف. وقد شجع ذلك الانتصار سكان شرق أفريقيا على أن يطلبوا مساعدة بنى دينهم وبنو عمومتهم، وفعلا بعث حكام كل من زنجبار وممبسا وغيرها إلى إخوانهم عرب عمان، يطلبون منهم المعاونة وأرسلت ممبسا أيضا إلى العمانيين، وهكذا بدأ تدخل عمان فى الصراع العربى البرتغالى، الذى تدور رحاه فى شرق أفريقيا، ودخل العثمانيون فى ميدان الجهاد عام ١٦٥٢ ؛ حيث استطاعت دولة اليعاربة أن تقضى على سيطرة البرتغاليين فى شرق أفريقيا؛ حيث استطاعت تلك القوة الفتية أن تهزم البرتغاليين فى زنجبار، وفى عام ١٦٦٠م استولى الإسطول العمانى على ممبسا ، وفى آخر أيام سلطان بن سيف دخل العمانيون موزمبيق، وظل العمانيون يحملون علم الجهاد الإسلامى والمقاومة العربية فى عهد سلطان بن سيف، وهزم البرتغاليون سادة الأمس هزيمة ساحقة عند ممبسا، وذلك بفضل مساعدة سكان ممبسا المسلمين، الذين قدموا كل عون ممكن للأسطول العمانى .

وكان العمانيون قد تحركوا لتلبية طلب إخوانهم، قبل أن يتم للعمانيين تحرير بلادهم، فقد ظهرت السفن العمانية أمام سواحل أفريقيا فى عام (١٦٥٠ ، ١٦٥٢)؛ فقد أرسل الإمام سلطان بن سيف عدداً من السفن العمانية لمهاجمة المستعمرات البرتغالية فى زنجبار وباتا، فدمرتها وقتلت عدداً كبيراً من البرتغاليين، واستولى المهاجمون على كل ما وقع تحت أيديهم، فحولوا الكنائس إلى مساجد؛ حيث كانت قد أقيمت على أرض كانت عبارة عن مسجد قديم، وعاملت رجال الدين المسيحى بالحسنى، والذين أعلنوا إسلامهم انطوا تحت لواء الإسلام، وقبلت حاكمة زنجبار والتى كانت زوجة أحد الأمراء أن تعلن ولاءها لسلطان عمان، وهكذا استطاعت دولة اليعاربة أن تقضى على سيطرة البرتغاليين فى شرق أفريقيا، كما قضت على هذه السيطرة فى كل من عمان والخليج العربى.

ويقترن كما سبق القول نجاح عرب عمان والخليج العربى فى إنهاء السيطرة البرتغالية بالضعف، الذى أصاب الإمبراطورية البرتغالية، وكان سقوط الإمبراطورية البرتغالية بمثابة تلاشى نفوذ السيطرة البرتغالية على الخليج العربى؛ مما مهد السيطرة لائمة عمان اليعاربة على المعاقل البرتغالية، وتقوية أركان دولتهم الناشئة ، ولقد صادف ذلك كما سبق القول طلب ممبسا، التى كانت فى صراع دائم مع البرتغاليين، بعد أن وطئت أقدامهم أرض شرق أفريقيا، وكانت تثور دائما على حاكم البرتغال فطلبت العون من عمان؛ مما شجع العمانيين على مواصلة كفاحهم ضد البرتغاليين ، ولقد كان دور عمان هو العامل الأساسى والمحرك الأول فى تحرير منطقة شرق أفريقيا من السيطرة البرتغالية .

فقد قام مؤسس دولة اليعاربة الإمام (ناصر بن مرشد) (١٦٢٤ - ١٧٤١) بحركة تحريرية كبرى، تبعه بعدها خليفته (سلطان بن سيف) (١٦٤٩ - ١٦٦٨م)، الذى لم يكتف بالقضاء على البرتغاليين فى مسقط وعمان ومطرح ، وإنما تتبعهم فى مستعمراتهم بالهند وشرق أفريقيا والثابت فى تاريخنا أنه قد وصل الإسطول العمانى فى عهده إلى بومباى، وحاصر بعض المراكز البرتغالية فى سواحل مليار، ولم يلبث أن اغتنم فرصة استنجاد أهل ممباسا، فقام بمحاصرة تلك المدينة حصاراً طويلاً، استغرق أكثر من خمس سنوات فى بعض الأقوال (١٦٦٠ - ١٦٦٥م)، وعاد البرتغاليون بعد استيلاء العمانيين عليها؛ حيث استقر لهم الأمر وتعاونوا مع الأهالى من منطلق حق الأخوة الإسلامية .

وقد اتجه الأسطول العمانى بعد حصاره لمدينة ممبسا إلى حصار جزيرة زنجبار وبمبا، وتمكن من تخليصها من أيدى البرتغاليين، الذين استبد بهم الغضب إثر هذا الانتصار العربى

الإسلامى الحاسم؛ فقام القائد البرتغالى (كابريرا) بمهاجمة سكان هاتين الجزيرتين (زنجبار وبمبا) لمساعدتهم العمانيين، وترحيبهم بإخوانهم فى العقيدة والأهل، ولكنه لم يستطع مواجهة العمانيين أنفسهم، الذين استطاعوا خلال النصف الثانى من القرن السابع عشر الميلادى إقصاء البرتغاليين عن مستعمراتهم فى شرق أفريقيا، وتصفية وجودهم، والذى كان يمتد من جزيرة سوقطرة شمالاً إلى خليج دلجادو جنوباً .

ولقد كان نتيجة هذا النجاح العربى الإسلامى العمانى المبكر فى تصفية ذلك الوجود، أن اشتعلت ثورة عارمة فى كل المدن الساحلية، ضد حكم البرتغاليين من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب؛ مما أفزع حكومة البرتغال فى لشبونة ، فأرسلت قائدها فرنسيسكو سبكساس كابرا، وهو القائد السابق الذى أرسلته البرتغال سابقًا لثورة يوسف بن حسن بن أحمد، سلطان ممبسا ، أرسل هذه المرة لقمع الثورة الجديدة، وقد بادر بإعداد حملة مكونة من مائة وعشرين جنديًا برتغاليًا وأربعمائة جندى مجند فى الجيش البرتغالى، من الهنود، ومائة وعشرين جنديا احتياطياً من عرب ممبسا ، وسار بهذه القوة إلى جزيرة زنجبار؛ حيث ضرب قلاعها بالمدافع، واستولى البرتغاليون فى طريقهم إلى بمبا على عشر سفن، كانت عائدة من كلوه ومافيا ، ثم انتقل كابرا إلى الشاطىء، ونزل بانا، واستقر بها شهرين، واستطاع أن يخلص منها اربعمائة من أسرى البرتغاليين، عاد بهم إلى ممبسا، كانت قد أسرتهم القوات العربية العمانية، إلا أنه لم يكن من القوة بحيث تمكنه من متابعة نشاط العمانيين البحرى أنفسهم، أو تتبعهم الى مسقط. وكانت التعزيزات التى تأتى من جوبا بالهند ضئيلة جداً، ولم تستطيع أن تقرر مصير البقاء البرتغالى لمدة أطول .

واشتد التعصب الدينى المسيحى، بعد أن تم لهم ذلك الانتصار فكان البرتغاليون يلقون الحجارة على المصلين المسلمين، ويسبون النساء وينهبون البيوت والدور والوكالات التجارية، ويختلقون الأعذار لكى يبتزوا الأموال من السكان، فإذا حدث أن وقع أحد البرتغاليين وهو سائر فى الطريق أمام منزل أحد المسلمين ، حمل صاحب المنزل المسئولية وطلب منه تعويضا من أملاكه .

وقد أدت كل هذه الأنواع القاسية فى المعاملة ، إلى استنجاد السكان مرة أخرى بإمام عمان؛ لدفع الاضهاد والظلم البرتغالى الواقع على الأهالى، وعندما وصل ذلك إلى الإمام سلطان بن سيف.. فإنه سارع إلى تلبية طلب إخوة الإسلام؛ حيث أعد أسطولاً صغيراً عام

١٦٦٠م هاجم مدينة فازا وممبسا، واستولى عليها، ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء على قلعة يسوع؛ إذ كانت دفاعاتها قوية، بالإضافة إلى عودة الإمام سلطان إلى عمان؛ نتيجة لحدوث بعض القلاقل الداخلية فى البلاد، أثناء وجوده فى شرق أفريقيا لتحريرها من حكم البرتغاليين .

وقد انتهز البرتغاليون فرصة عودته، فأستولوا مرة ثانية على ممبسا عام ١٦٦١م، كما حاول البرتغاليون استرضاء السكان؛ فقاموا بتعيين حاكم مسلم على ممبسا، هو ههنا انمو؛ ليكون حلقة اتصال بينهم وبين السكان، ولكن رغم ذلك فقد واصل البرتغاليون سياسة الاضطهاد الدينى، والتنكيل برجال الدين والفقهاء، وكبار التجار ممن تعاونوا مع العمانيين أثناء قدومهم إلى شرق أفريقيا ، لذلك ازدادت كراهية السكان للإدارة البرتغالية، وتكررت الثورات المحلية ، وفى ذلك الأثناء مات الإمام سلطان بن سيف وخلفه على عرش عمان ابنه بلعرب بن سلطان بن سيف، الذى نَهَجَ نَهْجَ والده، وسار على سياسته فى ضرورة القضاء على الوجود البرتغالى فى عمان، ومحاربة البرتغاليين (١٦٦٨ - ١٦٩٢م)- وبعد توليه السلطة بفترة قصيرة فإنه تلقى فيضاً من الرسل، الذين وفدوا من شرق أفريقيا يحملون رغبة زعمائهم فى ضرورة الإسراع إليهم؛ لتحرير ديار الإسلام من أعدائه، كما فعل أسلافه الذين كانوا يهبون لنجدتهم عند كل طلب ، وبناء على تلك الرسائل والرسل العاجلة، فقد أقسم الإمام بلعرب أن يدمر ممبسا ويسوى بيوت وأماكن البرتغاليين بالتراب، أو يموت دونها، وهو يدافع عن الإسلام .

ففى عام ١٦٦٩م أعد الإمام أسطولاً مكوناً من ثمانية وعشرين سفينة حربية، وعدد كبير من الرجال، أبحرت فى يناير من العام نفسه إلى ممبسا ، ويبدو أن اتساع ثورات المسلمين فى شرق أفريقيا جعلت إمام يعاربة يتطلع إلى شرق القارة على نقاط برتغالية، أبعد فى الجنوب، فاتجهوا إلى قلب موزمبيق، التى عرفوا أنها ضعفت بسبب الحروب، التى قامت على نهر الزمبيزى وحاصروا قلعتها، ولكن استطاعت الحامية البرتغالية بقيادة جاسبار دى سوسة دى لاكيردا أن تصد المحاصرين؛ فأضطر العرب إلى رفع الحصار، وقام البرتغاليون بعد ذلك بمحاولة لإعادة سيطرتهم على الساحل؛ حيث أبحر نائب الحاكم بيدرود الميدا عام ١٦٧٨م من جوا بقوة عظيمة، وبعد أن استأنف مسيرة من قاعدتهم فى موزمبيق، وجه الهجوم على باتا التى كانت تحتل فى ذلك الوقت مكانة رئيسية بين القواعد العربية فى الساحل الشرقى، وللأسف الشديد فقد وجد لميدا أعوانا من بين السكان المسلمين فى إحدى المدن الساحلية، وهى مدينة قاز، فصار موقفهم يشبه إلى كبير الموقف، الذى اتخذه

سلطان مالندى من قبل حين تعاون مع البرتغاليين ضد ممبسا، وهكذا تمكن البرتغاليون فى نهاية الأمر من إخضاع باتا فى أواخر عام ١٦٧٨م، وشجعهم ذلك على تتبع القواعد الإسلامية الأخرى ، فأستولوا على سيو ولامو وماندا، التى قاومت بشدة وعنف وعناد، وكعادة البرتغاليين استخدموا كل وسائل القمع القاسية، فقتلوا حكام المدينة التى استولوا عليها، بالإضافة إلى مائتين من الرجال ذوى المراكز المهمة ، كما اتخذ القائد البرتغالى من مسجد باتا مقراً لقيادته، وحول مساجد أخرى إلى اسطبلات للخيول، ونهب البرتغاليون ثروات هذه المدن، التى كانت تتكون أساساً من العاج والذهب .

ولكن إزاء هذا حدث رد فعل سريع فى عمان؛ حيث ما كادت الأنباء والأعمال التى قام بها البرتغاليون تصل إلى أسماع السلطان فى مسقط، حتى أمر الإمام سيف بن سلطان الشهير بلعرب، بإرسال حملة تمكنت من تحرير باتا، وأسرع البرتغاليون بالانسحاب من المناطق الأخرى، وعادوا جنوباً إلى موزمبيق فى يناير عام (١٦٧٩م)

والذى لا شك فيه أن اشتباكات عام ١٦٧٨ - ١٦٧٩م، التى حشد لها البرتغاليون أعداداً كبيرة من الجنود والسفن، قد جرت على نطاق واسع، بدليل أن نائب الملك فى الهند والميدا هو الذى قاد تلك الاشتباكات بنفسه، وهذا ربما يعطى الدليل القوى على عزم البرتغال على إعادة نفوذها، وتصحيح الصورة التى اهتزت لدى سكان الساحل الشرقى، وكذلك فإن مقدار الغنائم التى استولى عليها البرتغاليون من المدن الإسلامية، والتى أرسل معظمها إلى خزينة لشبونة نفسها، ولما كانت لشبونة فى ذلك الوقت تعانى من التدهور، فلابد وأن المسئولين فى الإمبراطورية البرتغالية قد سروا كثيراً بالحصول على هذه الغنائم، ومع ذلك فإن البرتغاليين لم يتوقفوا عن المغامرة السابقة ، بل واصلوا هجماتهم من حين إلى آخر على جيرانهم فى الشمال؛ ففى عام ١٦٨٦م قاموا بغارة أخرى على باتا، وعادوا إليها فى العام التالى؛ حيث استطاعوا أن يوفقوا فى الاستيلاء على المدينة، وأسروا حاكمها وقد حملوه مع اثنى عشر فرداً من كبار رجاله إلى الهند، وهناك اجبروه على توقيع وثيقة، تعهد فيها بطرد العمانيين من المدينة، وأن يقيم البرتغاليون فى بلاده قلعتين لمرابطة حاميتين برتغاليين بصفة دائمة .

وقد فعل البرتغاليون ذلك مع حاكم باتا؛ لأجل أن يمنعوا أى اتصال بين مسلمى شرق أفريقيا وعرب عمان ، كما أن البرتغاليين كانوا على استعداد لإبقاء الحكام المسلمين المحليين

من المسلمين، على اختلاف أجناسهم، وخاصة السواحيلية كانوا شديدى التعلق بعرب عمان ، ويؤكد ذلك تعاونهم مع الحملة، التى قدمت مباشرة عقب استيلاء البرتغاليين على باتا، وكانت تضم أربعمائة عمانى وثلاثمائة سواحيلى، قدمت من مسقط، وتمكنت من القضاء على القوة البرتغالية فى باتا .

ولسنا بحاجة إلى القول أن التفوق البحرى العمانى كان له أثر كبير فى إحراز هذه النتائج العسكرية والسياسية فى شرق أفريقيا ، يضاف إلى ذلك تزعزع مركز البرتغاليين فى شرق أفريقيا الإسلامية؛ بسبب وجودهم الهامشى على الساحل وعدم تغلغلهم فى الداخل ، إذا كان هدفهم هو الحصول على الغنائم أو تأمين طريق الملاحة إلى الهند، كما أن قسوتهم نفرت منهم السكان المحليين الأفارقة من غير المسلمين .

ومن هنا فإنه يمكن القول أن نجاح العمانيين كان يرتبط بعدة عوامل، منها: قوة عرب عمان وشدهم إيمانهم بالقضية، التى يناضلون من أجلها، وهى نصرة إخوانهم فى العروبة والإسلام وكذلك تفوقهم البحرى ، بالإضافة إلى حالة الضعف والظروف التى جابهت البرتغاليين أنفسهم ، هذا إلى جانب أن البرتغال كان من ضمن أهدافها الأساسية، هو التثبت باسلوب الاحتكار وليس الاستعمار، وإنشاء قواعد بحرية؛ لضمان سلامة الطريق المؤدى إلى مستعمراتهم فى الهند، وتأمين الطريق بين لشبونة والهند، ومن هنا كان التمسك بأسلوب الاحتكار التجارى قد دفعهم إلى انتهاج أساليب عنيفة، اتسمت بالاستبداد والعنف والقسوة والإجرام وإلقاء المظالم على السكان، والاضطهاد فأثارت ثائرة الأهالى عليهم .

وتمثلت أكبر مأساة للوجود البرتغالى فى أفريقيا فى سقوط قلعة يسوع المسيح فى يد عرب عمان، فقد أخذت السيادة العمانية فى التزايد فى المحيط الهندى، فى عهد الإمام سيف بن سلطان، فبعد أن كانت هناك اشتباكات متفرقة مع البرتغاليين فى باتا، فإنه ما كاد القرن السابع عشر يقترب من نهايته، حتى أخذت المدن الواقعة شمال راس دلجادو تتخلص تدريجياً من الحكم البرتغالى، وهكذا كان أعظم انتصار حققه العمانيون على البرتغاليين فى شرق أفريقيا، هو نجاحهم فى إخضاع ممبسا فى ١٤ ديسمبر ١٦٩٨م، بعد حصار عنيف دام ثلاثة وثلاثون شهراً، وأنه بسقوط حصن يسوع المسيح فى مبسا، تم وضع نهاية للتفوق البرتغالى فى شرق أفريقيا، ويعيب بعض الباحثين على نجاح العمانيين فى انتزاع ممبسا، بأنه كان من الممكن أن يقوم سيف بن سلطان، وهو الذى خلف أباه سلطان بن سيف فى عام ١٦٦٩م، بتأسيس امبراطورية عربية عمانية على انقاض الإمبراطورية البرتغالية، ويبدو أن تلك الفكرة قد داعبت خياله فى يوم من الأيام، ولكن ضعف مركزه فى الداخل جعله يهمل

تنفيذ هذا المشروع، وبذلك تأخر تأسيس الإمبراطورية العمانية فى شرق أفريقيا إلى نيف ومائة عام، حينما قام بتأسيسها سعيد بن سلطان (١٨٠٦ - ١٨٥٦م) .

يحاول الكتاب والمؤرخون الأوربيين التقليل من شأن الإسلام فى استرداد شرق أفريقيا، ومن ذلك نجد مثلاً أن جيوان يذكر أن العمانيين حاولوا إسقاط موزمبيق، بعد نجاحهم فى الاستيلاء على ممبسا، ولكنهم أسرعوا بالتراجع بعد أن عمد البرتغاليون إلى إرهابهم، عن طريق تفجير لغم كبير، وضعوه هناك .

كما يذكر كويلاند عن تلك الحكاية أن المسلمين عندما حاصروا موزمبيق، فإنهم كانوا يقومون بشق حفرة فى مكان معين، تحت متاريس واستحكامات القلعة، التى تقع فى قلب موزمبيق؛ وذلك بغرض الوصول إلى قلب الحامية عن طريق هذا السرداب ، وقد بلغ هذا النبأ البرتغاليين، الذين قاموا بوضع أوانٍ مليئة بالماء على طول أعلى السور، ومن اهتزازات المياه استطاعوا بالضبط أن يحددوا المكان، الذى يجرى فيه الحفر تحت الأرض، وقاموا بدورهم بوضع شحنات، انفجرت بقوة هائلة، أثارت الذعر فى نفوس المهاجمين، فرفعوا الحصار عن القلعة .

وكان سقوط ممبسا هو العامل الحاسم، الذى أنهى الوجود البرتغالى فى هذا القسم الشمالى من ساحل أفريقيا الشرقى، وقد كلف هذا الانهيار للوجود البرتغالى جهدًا كبيراً؛ بحيث يمكن القول أنه من الإنجازات البارزة التى تسجل تاريخ دولة اليعاربة ، وكانت قد بدأت محاولات الإمام سيف بن سلطان؛ للاستيلاء على ممبسا منذ (مارس ١٦٩٦م)، حين أرسل أسطولاً مكونًا من سبع سفن حربية، وعشرة قوارب، وحوالى ثلاثمائة رجل لمهاجمة ممبسا، وما إن علم البرتغاليون باقتراب الأسطول العربى العمانى، حتى أسرعوا فى تخزين المؤن فى قلعة يسوع المسيح، وأصبحت القلعة هى مأوى المسيحيين والوثنيين، وعدد قليل من المسلمين الموالين للبرتغاليين .

وهكذا ما إن وصلت السفن العمانية إلى القرب من القلعة والشاطىء، حتى بدأت فى إطلاق النيران، فانطلق كثير من السكان، تاركين المدينة، ولجأوا إلى القلعة حتى تكدس بها نحو ألفين وخمسمائة رجل وامرأة، ولكن يلاحظ أن عدد الجنود البرتغاليين كان ضئيلاً، فلم يتجاوز الخمسين فرداً بين ضابط وجندى ومستوطن.

ولقد كان من الأسباب التى زادت فى ضعف مركز الحامية، انقطاع صلتها بالبر الغربى

الأفريقى (الساحل الشرقى)، فقد كانت القلعة تقع على رأس لسان برى صغير، فى حين وقع الشريط الضيق، الذى يصلها بالبر تحت رحمة المدافع العمانية، كما أخذت كميات الطعام تتناقص وانتشرت الأمراض، وتناقص عدد اللاجئين فى القلعة؛ حتى إنه لم يعد هناك سوى عشرين جندياً برتغالياً، والف وخمسمائة آخرين. وفى مثل هذه الظروف كان الأمل الوحيد هو مجيء عون خارجى ، وبالفعل وصلت حملة إنقاذ من جوا الهندية، فى نهاية عام ١٦٩٦م، وكانت تضم أربع سفن وسبعمائة وسبعين رجلاً، ونجحت بعد نضال شديد فى إمداد الحامية ببعض الغذاء والذخيرة، التى تمكن مائة رجل منهم من دخول القلعة ، غير أنه مع بداية عام ١٦٩٧م، أصاب الحامية الطاعون، وأخذ يحصدهم حصداً. وفى نهاية شهر يناير من العام نفسه، لم يبق من أفراد الحامية إلا عشرين رجلاً من الرجال المسلحين، ولكنهم أصروا على عدم الاستسلام، وفضلوا الموت بالطاعون، وهذا ما انتهى إليه أمر العدد القليل الباقى من الجنود ، وفى سبتمبر من العام نفسه وصل قائد برتغالى ومعه قوات من موزمبيق ونجح فى دخول القلعة إلا أنه مات فى نوفمبر من نفس العام قبل بضعة أسابيع، فى محاولة أخرى فاشلة للهجوم من جوا، واستمر الحصار سنة أخرى. وفى منتصف ديسمبر عام ١٦٩٨م، لاح للأسطول البرتغالى الثالث القادم من جوا بالهند ، العلم العمانى الأحمر يرفرف على القلعة؛ فلقد تمكن العمانيون من الاستيلاء عليها، بعد حصار دام ثلاثة وثلاثين شهراً؛ أى من ١٣ مارس ١٦٩٦ حتى ١٤ ديسمبر ١٦٩٨م .

وهكذا كان لسقوط قلعة يسوع المسيح ومدينة ممبسا على يد سيف بن سلطان، إمام دولة اليعاربة فى عمان، أثره الكبير فى إرغام البرتغاليين على الجلاء عن جميع الساحل، الذى يقع شمال خليج دلجادو، وفشلت محاولاتهم فى إعادة سيطرتهم على ذلك الجزء .

وهكذا فإنه بسقوط ذلك الحصن المنيع، وضعت دولة اليعاربة نهاية لتفوق البرتغاليين فى شرق أفريقيا كذلك فإن هذا النجاح الذى حققه العمانيون فى انتزاع مدينة ممبسا، قد كان من الممكن أن يؤدى بالسلطان سيف بن سلطان الذى خلف أباه سلطان فى عام ١٦٩٢م بتأسيس إمبراطورية عربية عمانية على أنقاض إمبراطورية البرتغاليين ، وهكذا كان لسقوط ممبسا أثر كبير فى زيادة حماس العمانيين؛ لتطهير كل مناطق شرق أفريقيا، من الاحتلال البرتغالى، وإجبارهم على اخلائها؛ ففى العام التالى نجح الإمام سيف فى طردهم من بمبا وكلوه وباتا وزنجبار، وعين ناصر بن عبد الله حاكماً لمدينة ممبسا، وقد انضمت كلوه وزنجبار للحكم العمانى فى ممبسا، كما حدثت مذبحة للبرتغاليين على طول الساحل .

وهكذا يرجع النجاح الذى أحرزه العرب العمانيون إلى عزمهم وتصميمهم على النصر، بالإضافة إلى انهيار القوة البرتغالية ذاتها فى المحيط الهندى، وعدم استطاعتها الاحتفاظ بأهم موقع لها على الجزء الشمالى من الساحل، ولم يكن سقوط قلعة يسوع المسيح فى يد العرب هيناً على البرتغاليين، الذين لم يكفوا عن محاولة استرجاعها، وقد جاءت إليها الحملات من لشبونة رأسا، وتكررت تلك المحاولات فى عام ١٦٩٩، ١٧٠٣م، ١٧١٠م. ولكن أخطر تلك الحملات هى التى قامت عام ١٧٣٨م، فقد تقدم البرتغاليون بأسطولهم جنوب ممبسا، منتهزين فرصة الاضطرابات، التى وقعت بها نتيجة للصراعات، التى قامت بينها وبين زنجبار، بالإضافة إلى تردت فيه دولة يعاربة فى عمان من حروب وفتن داخلية وغزوات فارسية متكررة، وقد نجح القائد البرتغالى لويس سامبيو فى إعادة سيطرة البرتغال على بعض مدن الساحل، وجزيرة كبات وكلوه، ولكن لم تستمر سيطرة البرتغاليين كثيراً؛ اذ قام أهالى هذه المدن بطلب المساعدة من عمان، التى كانوا ينظرون إليها باعتبارها الدولة الأم، وتمكن سيف بن سلطان، على الرغم من المشكلات المتعددة، التى كان يواجهها فى بلاده من طرد البرتغاليين من تلك السواحل ، وكما سبق القول بأن قسوة البرتغاليين من حكمهم هى التى دفعت الأهالى للثورة، وتقويض مراكزهم فى شرق أفريقيا؛ حينما قابل سكان ساحل شرق القارة أسلوب قهر البرتغاليين بالذبح والقتل، واستعملوا خناجرهم وسيوفهم فى أعناق الحامية فى ممبسا، كما حذت حذو ممبسا كثير من المدن ومقاطعات الساحل .

وهكذا اذ كان الحقد الصليبى قد استطاع أن يوقف الدعوة الإسلامية، ويحارب رجالها فى شرق أفريقيا فترة من الزمن، نجح فيها فى خلق قواعد صليبية، إلا أن الإرادة الإلهية شاءت أن يخرج أبناء جنوب شرق الجزيرة العربية للجهاد الإسلامى ومدافعة الخطر الصليبى البرتغالى، فكان دخول العمانيين فى ميدان الجهاد الإسلامى؛ من أجل إعادة راية لا إله إلا الله محمد رسول الله إلى الساحل الأفريقى مرة أخرى، واستطاعت الدعوة الإسلامية أن تهزم البرتغاليين فى زنجبار، وأن يستولى أسطول عمان على ممبسا، ودخل المسلمون موزمبيق، واستطاع إمام اليعاربة، سيف بن سلطان، أن يحرر الساحل الشمالى من شرق القارة، من كل أثر من آثار الخطر الصليبى البرتغالى، وكان هذا نذيراً بانطلاقة إسلامية قوية، ودعوة رجال الدعوة الإسلامية إلى أن يعودوا إلى قواعدهم، التى طردوا منها، وأن يمتد الإسلام عبر الغابات والأدغال والاحراش؛ حتى وصل إلى حوض الكونغو، وبدأ الدعاة ينتشرون فى سفالة وموزمبيق، ونفذ الاسلام إلى وسط القارة إلى (روديسيا زمبابوى، ونياسلاند ، وملاوى).

ولازال إلى اليوم أثر هذه الدعوة القوية، ودخل الإسلام فى أوغندة وهضبة البحيرات وكينيا وتنجانيقا، وظهرت فى الداخل رعية إسلامية، وكذلك ارتفعت فى الأعالى مآذن المساجد فى كل القرى الواقعة على الطريق الساحلى، والموصل إلى بحيرات نيساسا وتنجانيقا ، بل إنه لا توجد قرية من تلك القرى، إلا ووجد بها عدد كبير من المسلمين العرب والأفارقة السواحيلية، والذين أخذوا ينشئون المساجد لهم لإقامة الشعائر الدينية .

وهكذا قلب رجال الإسلام ودعاته الهزيمة إلى نصر، وحقق هذا النجاح الذى قاده أبطال عمان ما لم تحققه الدعوة الإسلامية، فى تلك الأنحاء، فى القرون الأربعة الأولى، على الاستقرار الإسلامى؛ إذ استطاعت القوى الإسلامية أن تطوى تحت لوائها كل تلك الأراضى، وبدأ الإسلام يوطد نفوذه ويرسخ أقدامه ويوطد دعائمه ، وبدأ الأفارقة يقبلون على الإسلام جماعات وافراداً ، بعد أن شاهدوا الرجل العربى المسلم يخلصهم من سيطرة واستغلال وحكم الرجل الأبيض، الذى امتص دماءهم، وأحرق قراهم، وخطف أبناءهم وأخذهم أسرى ليباعوا فى أسواق الرقيق فى أوروبا وأمريكا .

وتلك هى الدعوة الإسلامية معاملة إنسانية، وروح إسلامية، وأخوة مؤمنة، ومساواة وعدالة، وحق وصدق، ومودة وصفاء وإيمان ونقاء ، وهكذا أخذ رجال الدعوة الإسلامية يسعون؛ من أجل الوصول بدعوتهم إلى كل مكان، وحملوا معهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، نشروها فى كل مكان، وبدأت انطلاقة إسلامية قوية فى تلك الأماكن، وبدأ الأفارقة يقبلون من جديد على الإسلام، ويدعون له ويشاركون إخوانهم العرب والمسلمين فى القيام بالدعوة بين القبائل الوثنية، وهكذا ارتبطت ثورة ممبسا على البرتغاليين بالعلاقات والصلات الأخوية الإسلامية، التى كانت تربط بين الساحل الشرق الأفريقى؛ وبصفة خاصة مدينة ممبسا؛ التى عارضت الوجود البرتغالى، منذ أول لحظة قدم فيها إلى شرق القارة، بينما رحبت به مالندى. وقد أدرك عرب عمان اليعاربة وغيرهم من أبناء الإسلام فى جنوب شرق وغرب الجزيرة العربية أن أهالى ممبسا قد ادركوا أنه من الأفضل أن يحموا أنفسهم من البرتغاليين، وذلك بالتجائهم إلى قوة كبيرة يعتمدون عليها، ومن ثم كان من الطبيعى أن يلجأوا إلى سلطان عمان ودولة اليعاربة؛ نظراً للعلاقات الوثيقة التى قامت بينها، وأن يطلبوا من السلطان والإمام سيف بن سلطان وضع بلادهم تحت حمايته .

لم ينتظر أهالى ممبسا المدد إليهم من عمان، بل عمدوا إلى الحيلة، فأشاعوا أن سفناً كثيرة يرسلها الإمام لنجدتهم ستصل قريبا إليهم، فاستولوا بهذه الخدعة على محصول الأرز

والذرة والحبوب المخزونة؛ بحجة العمل فى درسها وتجهيزها، لتكون صالحة عند الحاجة إليها، ثم انتهزوا فرصة عيد البرتغاليين، حيث كان السواد الأعظم من رجال الحامية قد خرجوا إلى الكنائس واجتمعت أفواجهم ، ثم انتشروا فى أرجاء المدينة يقضون على البرتغاليين، ويمعنون فيهم القتل والأسر، وانتشروا فى أرجاء المدينة، يقضون على البرتغاليين، وعلى كل أثر لهم، فمن نجا من السيف وقع فى الأسر، أما الذين كانوا لا زالوا يتحصنون فى الحصن- بعد أن شاهدوا من ثورة الأهالى، وقضائهم على كل برتغالى خارج الحصن- فإنهم استسلموا للأهالى بشرط عودتهم إلى موزمبيق، وهكذا انتهى هذا الاحتلال البرتغالى، الذى كان قد استمر عامين ، بعد أن كان البرتغاليون قد عادوا إلى ممبسا، إثر الانقسام، الذى حدث بين زعيم طائفة العيادتين، وبين حاكمها من قبل الإمام .

وهكذا تم لسكان ممبسا الاستيلاء على الحصن، وجعلوا به حامية مؤلفة بأن اختاروا من كل قبيلة رجلاً واحداً، وشكلوا حامية جماعية، تمثل كل سكان المدينة، وتحصنت تلك الجموع الشعبية فى القلعة، وأرسلوا إلى سلطان عمان وفداً، يسأله أن يمد حمايته عليهم، ويرسل لهم القوات والأسلحة الحديثة، وأن يقبل منهم طاعتهم، وأن يعمل بذلك ما استطاع، وكانت هذه خير فرصة انتهزها الإمام سيف بن سلطان؛ فبعث بأحد رجاله، ويدعى محمد بن سعيد المعمورى ، وكان ذلك فى عام ١٧٢٨م ، وكان وفد ممبسا الذى وصل إلى مسقط، مؤلفاً من شيوخ القبائل والعشائر، ومن وكلاء عن كل القرى وأرسل السلطان إلى ممبسا ثلاث سفن، مشحونة بالعتاد والرجال بقيادة الحاكم الجديد، من قبل السلطان؛ لكى يحكم ممبسا وهو (محمد بن سعيد المعمورى)، واستولى رجالها بمجرد وصولهم على الحصن، ثم عينوا المعمورى نائباً للإمام فى حكم ممبسا ونجح ذلك القائد بعد ذلك فى اخضاع زنجبار ، كما خضعت للامام كل المدن والجزر، وأصبحت تقدم له الجزية السنوية، وهكذا أصبحت زنجبار وغيرها من مدن وجزر الساحل؛ فأصبحت من توابع عمان، ولم تلبث أن ظهرت السيادة العمانية بصورة واضحة على الساحل الشرقى لأفريقيا؛ حيث امتدت من مقديشيو شمالاً إلى خليج دلجادر جنوبا، وهكذا أتم العمانيون العمان السيطرة التامة؛ بحيث عينوا أسرة الحارث لحكم جزيرة زنجبار واسرة النبهانيين لحكم باتا، واسرة المعمورى لحكم ممبسا، ثم تلتها فى حكم الجزيرة أسرة المزروعى.. وهكذا كان هذا التحرر الإسلامى من الكابوس الذى جثم على صدر المسلمين، فى ذلك الجزء من القارة الأفريقية، نحو قرنين من الزمان، كان نذيراً بانطلاقة عظمى للمد الإسلامى، فقد عاودت

حركة المد الإسلامى نشاطها، وبدأ المسلمون يعوضون ما فاتهم تحقيقه فى السنوات الماضية، وبدأ الإسلام يتوغل توغلاً حقيقياً إلى الداخل، وبدأ الدعاة ينشرون الإسلام فى موزمبيق وسفالة ، ونفذ الإسلام إلى الداخل بقوة ، وهكذا بعد اختفاء الخطر البرتغالى، تعمق الدعاه والتجار ورجال الإدارة فى توغلهم إلى الداخل، فنفذوا كما سبق القول إلى هضبة البحيرات، ودخلوا أوغندة.. دخلها تجار زنجبار، ودخل الإسلام إلى كينيا وتنجانيقا .

وهكذا ترتب على السيادة العربية الإسلامية العمانية اليعاربية انطلاقة جديدة للإسلام؛ مما يجعلنا نؤكد حقيقة تاريخية مهمة، وهى أن تدخل عرب عمان فى شرق أفريقيا لم يكن عاملاً مهمًا فى القضاء على السيطرة البرتغالية، فى ساحل شرق أفريقيا فحسب ، بل إن أهمية هذا التدخل تكمن فى أنه أتاح للدعوة الإسلامية والدين الإسلامى، المناخ الصالح والملائم للانتشار دون عقبات، فمن المفروض أن البرتغاليين قد تمكنوا فى خلال المائتى عام، التى قضوها فى التمكن للعقيدة الكاثوليكية المسيحية ، ولذلك يعتبر كثير من المؤرخين أن سقوط قلعة يسوع المسيح البرتغالية فى ممبسا عام ١٦٩٨م، إشارة مهمة إلى بداية انطلاق الدعوة الإسلامية؛ بحيث لم يكن ذلك الحدث يشكل القضاء على السيطرة البرتغالية، وإنما فى إتاحة فرصة ملائمة لانتشار الإسلام .

على أن سيطرة عمان على ساحل شرق أفريقيا فى أعقاب انهيار السيطرة البرتغالية، لم تكن سيطرة فعلية؛ فحقيقة الامر أن أئمة عمان لم تكن لهم إلا آثار طفيفة فى ممارسة الحكم فى تلك الجهات، والواقع أن المشكلات الداخلية التى تردت فيها دولة اليعاربة من تنازع حول الحكم، ومحاولة أئمة تلك الدولة توطيد مركزهم فى الجزيرة العربية والخليج العربى، وحملاتهم ضد البرتغاليين، كانت من أهم العوامل، التى جعلت السيادة العمانية على ساحل شرق أفريقيا تكاد تكون سيادة اسمية، اكثر من كونها سيادة فعلية .

ومع كل ذلك.. فقد استطاع سلاطين دولة اليعاربة فى عمان أن يرثوا البرتغاليين فى تأسيس دولة عربية، لها سيادة إسلامية، امتدت على جزء كبير من ساحل شرق أفريقيا، وقد يعود عدم وجود السيادة الفعلية فى ساحل شرق أفريقيا إلى ضعف دولة اليعاربة، التى استنفذت معظم جهودها فى الصراع ضد البرتغاليين، بحيث لم تعد لديها القدرة بعد طرد البرتغاليين أن تمارس سيطرتها الكاملة والفعلية فى شرق أفريقيا وإنما قنعت بطرد البرتغاليين وتحرير أخوة الإسلام فى تلك الأنحاء، وكذلك قنعت بالفتح، وتركت للأمور تثبيت ما قاموا به من فتح ، أضف إلى ذلك ما سبق القول أن دولة اليعاربة تعرضت لصراعات داخلية

ومشكلات عميقة الجذور، بسبب الثورات الأهلية والغزوات الفارسية (انظر – عايشة اليسار، دولة اليعاربة فى عمان وشرق أفريقيا) .

ولم تترك تلك المشكلات الداخلية أدنى فرصة لسلاطين اليعاربة أن يوجهوا الاهتمام الكافى لما قاموا به من فتوح، ولذلك كان من الطبيعى أن ينتهز حكام هذه المدن الأفريقية، الذين تولوا الحكم فى مقاطعات الشرق الأفريقى هذه الفرصة، وتلك الحالة من الفوضى والتفكك، التى تردت فيها دولة اليعاربة، وخاصة فى نهاية حكمها، الذى اتصف بالانحلال المطلق؛ مما كان له أثر كبير فى سقوطها. وهكذا فإن أئمة عمان لم تكن لهم إلا آثار طفيفة لممارسة الحكم فى تلك الجهات؛ ذلك لأن المشاكل الداخلية التى تردت فيها دولة اليعاربة جعلت سيادة عمان على الشرق الأفريقى اسمية أكثر منها فعلية .

وهكذا نرى أنه بعد أن نجح سيف بن سلطان فى انتزاع شرق أفريقيا من أيدى البرتغاليين بسط أئمة مسقط سلطانهم على تلك الأنحاء، نحو قرن من الزمان، وقد رحب المسلمون فى شرق أفريقيا بالعمانيين، باعتبارهم مخلصين لهم من أعدائهم البرتغاليين، فلما توفى سيف بن سلطان عام ١٧١١م وضعفت عمان ومزقتها الفتن الداخلية ، بدأ حكام شرق افريقية يستردون استقلالهم؛ حيث إنه تتفق المراجع على اعتبار عام ١٧٤٤م، هو العام الذى تولى فيه أحمد بن سعيد الإمامه فى عمان، وسقطت فيه الدولة اليعربية، إلا أن سقوط الدول فى شرق أفريقيا ربما كان قد تحقق عمليا قبل ذلك .

وفى معظم الأوقات.. كان حكم اليعاربة فى شرق أفريقيا اسمياً، وتمثل فى الولاة ممن ظل أئمة عمان يعينونهم، تاركين لهم جميع مقاليد الأمور ، ولقد كان لانتقال الحكم من دولة اليعاربة إلى دولة البوسعيدية رد فعل قوى فى شرق أفريقيا، فاذا كان حكام شرق أفريقيا قد تولو الحكم من قبل دولة اليعاربة، فماذا يمنعهم بعد أن سقطت تلك الدولة، وزوال حكمها أن يستقلوا بما تولوا عليه من مقاطعات واستقلال شرق أفريقيا عن عمان .

* * *

الفصل الثالث

استقلال شرق أفريقيا عن عمان

لقد كان من أعظم ولاة عمان فى شرق أفريقيا محمد بن عثمان المزروعى، الذى أسس الأسرة المزروعية عام ١٧٣٩م، حيث إنه بعد وصوله الى ممبسا، انتزع الحكم من أحمد بن سعيد المعمورى؛ حيث حدث أن تزعمت ممبسا الحركات الانفصالية، التى ظهرت فى ذلك الوقت فى كثير من المقاطعات الأفريقية وقد تزعم الحركة الانفصالية فى ممبسا محمد بن عثمان المزروعى، الذى أسس الأسرة المزروعية فى عام ١٧٣٩م، بعد وصوله إلى ممبسا، وانتزاعه الحكم من أحمد بن سعيد المعمورى. وكانت الأسرة المعمورية إحدى الاسرات، التى أقامتها عمان فى حكم الساحل الشرقى من أفريقيا وكان سقوط دولة اليعاربة فى عام ١٧٤٤م، فرصة انتهزها محمد بن عثمان المزروعى؛ لكى يعلن استقلال ممبسا من التبعية العمانية، ووضح ذلك حينما رفض الاعتراف بولائه للدولة الجديدة، التى خلقت دولة اليعاربة، وهى دولة بوسعيد .

وقد كان محمد بن عثمان المزروعى قد جاء فى الوقت الملائم للقضاء على القلاقل والفتن، وأنه حكم البلاد دون أن يلقى معارضة من أحد،كما أن شيوخها وسكانها كانوا يحيونه ويقدرونه، فلما وصل هذا الوالى نبأ جلوس الإمام الجديد احمد بوسعيد فى كرسى الإمامة أبى أن يعزله، ولم تقف أطماع المزروعى عن حد حلوله فى السيادة محل حاكم أو والٍ آخر؛ إذ كان يهدف إلى الاستقلال التام والتصرف المطلق، فى تلك المقاطعة، التى توصل إلى الولاية عليها، فما كاد يصل الى الحكم ،حتى آخذ يمهد السبيل لإحداث انقلاب فى البلاد ، وبدأ بتوطيد الأمن فى مقاطعته، التى انهكتها الحروب وأجهدتها الملاحم والمعارك الدامية، التى حفل بها تاريخها الطويل، وسار فى الناس بالعدل والمساواة، فأحبه الشيوخ والرؤساء، واستطاع أن يضمن بذلك تأييدهم لحكومته والتمهيد لنفسه ولبلاده السبيل للاستقرار .

ولم تلبث الظروف أن سنحت له للانفراد بالسلطة على ممبسا، وهى وقوع عمان فى

سلسلة من الأزمات والمشاكل، التى لم تترك لحكامها وقتاً للتفكير فى الشرق الأفريقى ، كما أن سقوط دولة اليعاربة فرصة انتهزها محمد بن عثمان المزروعى؛ لكن يعلن استقلال ممبسا عن التبعية العمانية، ظهر ذلك حينما رفض المزروعى الاعتراف بولائه للدولة الجديدة، التى خلقت دولة اليعاربة، وهى دولة البوسعيد، وكان عدم اعترافه بالإمام أحمد الذى أسس تلك الدولة، هو حجر الزاوية فيما سارت عليه العلاقات بين هذين الرجلين .

ولقد كانت هناك عدة مبررات، برر بها محمد بن عثمان المزروعى استقلاله عن عمان، إذ ظل باقياً على ولائه للدولة اليعاربية، حتى سقطت، ولم تكن تبعيته لعمان معناها استمرار ولائه للقيادة السياسية فى البلاد، حتى بعد سقوط أسرتها الحاكمة التى عينته حاكماً على ممبسا ، فضلاً عن أن مؤسس الدولة الجديدة، وهو الإمام أحمد بن سعيد لا ينتمى إلى أصل يستوجب احترامه، وإنما لا يعدو كونه رجلاً عادياً، توصل إلى الحكم بطموحه الشخصى، وليس هناك ثمة ما يدعو إلى التمسك بالولاء له؛ بمعنى أنه إذا كان الإمام أحمد بن سعيد حاكم صحار، إحدى مقاطعات عمان، فقد استطاع أن يصل إلى زمام الحكم فى بلاده، فماذا يمنع المزروعى- وهو حاكم ممبسا- من الاقتداء بما فعله حاكم صحار، أو ماذا يحول دون امتلاكه للمقاطعة، التى يحكمها أو يستقل بها استقلالاً تاماً.

لقد نقلت هذه العبارة إلى الإمام أحمد بن سعيد، الذى أدرك ما يرمى اليه المزروعى من سياسة انفصالية عن الدولة الأم عمان ، فقد يكون لها أثر كبير فى مستقبل العلاقات بين ممبسا وعمان، بل وبين عمان ومقاطعات الشرق الأفريقى بصفة عامة، ومن هنا كان تفكيره الجدى فى إخضاع ممبسا، وتأكيد سيطرته على تلك المقاطعات، التى ورثها عن أسلافه اليعاربة .

وهكذا اختطت دولة البوسعيد- منذ أن قامت- سياسة أفريقية، فلم تكن المشاكل التى واجهها أحمد بن سعيد، سواء فى داخل بلاده أو فى الخليج العربى، وصراعه ضد فارس أو جهوده؛ لتوطيد نفوذه وترسيخ دعائم بيته؛ لتشغله عن ممتلكات دولته فى شرق أفريقيا .

ولعل الإمام أحمد بن سعيد قد أدرك- كما أدرك كثيرون غيره من الحكام- مساوىء حدوث انفصال بين بلاده وبين الساحل الشرقى لأفريقيا لما بين الإقليمين من روابط اقتصادية وصلات وثيقة، ولكن دولة البوسعيد فى عمان فى حكمها الأول، لم تستطع أن

تقضى على الثورات الانفصالية، التى تزعمها المزرعيون فى ممبسا، والنبهانيون فى جزيرة باتا؛ فمما هو جدير بالذكر أنه قد وافق قيام الحركات الانفصالية فى ممبسا حركات انفصالية، تزعمها النبهانيون فى جزيرة بات، وأصابت من النجاح ما أصابته ثورة ممبسا، وإزاء ما يحدث فى شرق أفريقيا من الثورات.. فإن الإمام أحمد بن سعيد قد صمم على إخضاع حكام ممبسا المزروعيين لسلطته، ولهذا بعث بستة من أعوانه المخلصين، برئاسة سيف بن خلف إلى ممبسا يوم أن وصلوا إليها؛ حتى عمدوا الى الحيلة والدهاء لمقابلة الحاكم ، فلما التقوا به أفضوا إليه أنهم خصوم الإمام وأعداؤه، وأنهم فروا من عمان فى طلب الخلاص منه ومن جوره، وانهم إذ آثروا الحضور إليه، فما هو إلا ليخدموه ويعاونوه ضد خصمه أحمد بن سعيد حاكم عمان، إذ إنهم ما كادوا يعرفون أن حاكم ممبسا يقوم بحركة عدائية ضد هذا الرجل، حتى تسارعوا بالمثول بين يديه؛ لكى يتعاونوا معه فى انتزاع الحكم من إمام عمان وإعطائه له. ولكى يمثلوا دورهم بمهارة، طلبوا من المزروعى أن يساعدهم فى الرحيل إلى المقاطعات والأقاليم المجاورة لممبسا ككلوه وباتا وبمبا؛ ليجمعوا الانصار والمساعدين، لإنجاح حركتهم، ورحب المزروعى بهذا الاقتراح، وأنس من هؤلاء الرجال الذين أظهروا الإخلاص. وقبل اليوم المحدد لرحيلهم، قصدوا القلعة بحجة ظاهرها الرغبة فى توديع محمد بن عثمان المزروعى، فقابلهم هذا منفردا، وبينما هم فى حضرته يحدثونه إذ انقض عليه أحدهم، وضربه ضربة مميتة، ثم قام سيف بن خلف بالقبض على رجال المزروعى وحاشيته، وأعمل فيهم الذبح والتقتيل .

وهكذا واجهت الدولة البوسعيدية تلك الحركة الانفصالية، التى ظهرت فى ممتلكاتها الأفريقية بالحزم والقوة، وإذا كانت عمان قد لقيت مقاومة شديدة فى كل من ممبسا وباتا؛ فإنها كانت على أية حال اكثر توفيقاً ونجاحًا فى المقاطعات الأفريقية الأخرى، التى لم تصل إليها الثورة مثل باتا وممبسا ، كما دبت فى هاتين المقاطعين؛ إذ لقيت ولاءً من بعضها وخضوعا اسميا من بعضهما الآخر ، فزنجبار ظلت على ولائها لعمان، واعترفت بالدولة الجديدة، وتولى زمام الحكم فيها قائد القوات التى بعث بها الإمام أحمد بن سعيد، لتأكيد سيطرة دولته على تلك الجزيرة ، كذلك أعلنت مركة ولاءها وطاعتها للإمام أحمد حاكم عمان ، أما كلوه فقد أعلنت ولاءها للدولة الجديدة، وان كان ذلك ولاءً اسمياً .

أما ممبسا التى تم السيطرة عليها من قبل مندوب السلطان سيف بن، خلف فقد كانت

تزعمت حركة المعارضة، وتجاهد فى سبيل تكوين تحالف من المقاطعات الثائرة، وتوجيه الشعور فى الشرق الأفريقى للثورة ضد عمان؛ لتكوين إمبراطورية مزروعية إسلامية، مستقلة استقلالاً تاماً عن السلطنة الأم فى عمان .

وقد نجحت ممبسا فى إثارة المدن التابعة لها كمقديشيو وبراوة وبقية المدن الواقعة إلى الجنوب حتى كوافى، فطرحت تلك المدن تبعيتها عن عمان، وذلك عقب نجاح محمد ابن عثمان المزروعى فى توكيد سيطرته عليها، وفى تقديرنا أن الامر لم يكن رغبة تلك المقاطعات فى الثورة والانفصال عن عمان، الذى كان يؤدى الاتصال بها- بطبيعة الحال- إلى ازدهار وتقدم كبير من ناحية العلاقات التجارية، قدر ما يرجع ذلك إلى جنوح تلك المقاطعات للثورة والتمرد؛ نتيجة لتحريض ممبسا واستجابة لما يقوم بها حاكمها محمد بن عثمان المزروعى من ثورة على عمان، وخاصة عندما نجح فى أن يضم تلك المقاطعات إلى حكمه .

والحقيقة ان ثورات المزروعيين لم تقف عند حد؛ إذ حاولوا تأليب مقاطعات الشرق الأفريقى للانفصال عن عمان، وظهر ذلك فى غاراتهم على زنجبار، وانتزعوها من أيدى عمان، وقد حدث ذلك فى الوقت، الذى كانت فيه عمان منغمسة فى مشاكلها الداخلية والخارجية.

لقد كان ما قام به سيف بن خلف من قبل الإمام أحمد بن سعيد من اغتيالات فى ممبسا، لم يكن ليؤدى إطلاقاً إلى معالجة المشكلة التى هددت عمان ، حقيقة أن قتل المزروعى كان له أثر كبير فى تخلص أحمد بن سعيد من خصم عنيد، كان فى إمكانه لو قدرت له الحياة أن يكون من أكبر المنافسين لحكمه والمناوئين للسلطنة ، لكن اغتيال محمد بن عثمان المزروعى لم يحقق أهداف عمان؛ إذ سارع إخوة على بن المزروعى بإعلان الثورة ضد سيف بن خلف، وبادر إلى تعبئة شعب ولايته للوقوف ضد البوسعيد ، وقد استعان على بن عثمان المزروعى، فى صراعه ضد الدولة بأحد التجار الإنجليز، ويدعى كوك، وكان يعمل بالتجارة فى ممبسا، وبذلك دخلت إنجلترا طرفاً جديداً فى الصراع الدائر فى شرق أفريقيا بين الوطن الام عمان وبين ممبسا ، ولقد كانت هناك عوامل، دفعت كوك الإنجليزى لمعاونة على بن عثمان المزروعى؛ حيث إنه يبدو أن ذلك التاجر لم تكن علاقته طيبة مع عمان، أو أنه كان ينفذ مخططاً لوضع أقدام بريطانيا فى تلك الأنحاء ، ذلك لأنه مما لا شك فيه أن

انفصال شرق أفريقيا عن عمان، وما يمكن أن يترتب عليه من قطع الاتصالات البحرية بين البلدين، وبالتالى ضعف التجارة العمانية؛ مما يؤدى إلى ترك الميدان خالياً للتجارة الإنجليزية وبسط النفوذ البريطانى .

ولقد ظهرت رغبة بريطانيا فى أن يكون لها نفوذ فى شرق أفريقيا فيما قام به كوك لمعونة على بن عثمان المزروعى فى مواصلة الحركة الاستقلالية عن الدولة العمانية، وظهر نشاط ذلك الرجل عقب نجاح سيف بن خلف فى القبض على شقيق القتيل محمد ابن عثمان المزروعى، وإلقائه فى السجن، واستطاع بفضل المساعدات والإمدادات التى تلقاها من رؤساء وشيوخ المقاطعات الموالية له من إطلاق سراح على بن عثمان المزروعى، الذى لم يلبث ان واصل صراعه ضد قوات سيف بن خلف مندوب إمام عمان، أحمد بن سعيد حتى اجلاه عن البلاد، كما تمكن فى آخر الأمر من اغتيال سيف بن خلف، أخذ بالثأر لمقتل أخيه محمد .

وهكذا تأكد استقلال ممبسا عن عمان، حينما ولى على بن عثمان المزروعى شئون الحكم عام ١٧٤٦م، وقد اتجه الحاكم الجديد إلى الاعتماد على تأييد القبائل الأفريقية ومعاونتها له؛ وخاصة فى طرد العمانيين، وقتل سيف بن خلف، وتوطيد حكم آل مزروعى فى ممبسا؛ وخاصة قبيلة الكنديني والوانيكا؛ فمنحهم كثيراً من الامتيازات، التى لم يسبق لهم الحصول عليها فى أى وقت من الاوقات، وقد حدث ذلك فى الوقت الذى كانت فيه عمان تعانى مشاكل داخلية عديدة، فكان الإمام أحمد بن سعيد يعمل على توطيد دعائم حكمه؛ ولهذا اضطر الإمام أحمد بن سعيد إلى الاكتفاء بذلك القدر من الجهد، الذى بذله فى شرق أفريقيا على الرغم من الجهود التى بذلها من محاولات الاحتفاظ بما كان لأسلافه من ممتلكات فى تلك الجهات ، على أن نجاح أحمد بن سعيد لم يكن نجاحاً تاماً إذ لم تكن له سوى سيطرة واهية على المقاطعات العمانية فى شرقى أفريقيا .

على أنه مهما يقال عن ضعف تلك السيطرة العمانية البوسعيدية، فإن الأمر الذى لا شك فيه أن اتجاه أحمد بن سعيد إلى شرق أفريقيا كان بالقدر، الذى سمحت به ظروفه، وبمثابة تأكيد لمطالب عمان فى تلك الجهات، ولذلك كان ما قام به الإمام أحمد ابن سعيد- بصفته مؤسسا لدولة البوسعيد- هو الدعامة، التى ارتكز عليها خلفاؤه فيما بعده من

تمسكهم وإصرارهم على ضم مقاطعات شرق أفريقيا حتى نجح سعيد بن سلطان فى تأسيس إمبراطورية عربية اسلامية فى شرق أفريقيا .

على أن أكثر ما امتاز به حكم الإمام أحمد بن سعيد هو إنعاش العلاقات التجارية بين عمان وشرق أفريقيا ولا شك ان انتماء ذلك الرجل إلى أسرة من التجار واشتغاله بالتجارة لسنوات كثيرة، قبل وصوله إلى الحكم فى عمان، كان له تأثير كبير فى اهتمامه بالناحية الاقتصادية. وقد اتصف حكام دولة البوسعيد بحرصهم البالغ على ترويج التجارة، وأن استمرارها بين عمان وشرق أفريقيا فقد كان الامام يرسل فى كل عام مجموعة من سفنه؛ لتأتى له بالموارد الاقتصادية من المقاطعات، التى كانت تعترف له بالسيادة، أما المقاطعات التى لم تعترف بسيادته فقد حرص على ألا يفرض سيادته عليها بالقوة خوفا من انقطاع الصلات التجارية بينها وبين بلاده .

وقد كان للاحداث التى وقعت فى عمان بعد وفاة الإمام أحمد بن سعيد فى عام ١٧٧٥م أثر كبير فى مقاطعات شرقى أفريقيا؛ إذ كان للمنازعات الأسرية التى قامت فى عمان خطورتها، بالنسبة للممتلكات فى تلك الجهات، ذلك أن الأمور لم تنسب لابنه سعيد ابن احمد (١٧٨٣ - ١٨٢٠) وهو الذى خلف أباه فى الحكم، إذ برز له أخوه سيف ابن احمد بن سعيد منافساً له، ولكن سيفاً آثر أن يقوم بنشاط فعال فى شرق أفريقيا بعد ان رأى ان عمان قد خرجت كلية من يديه، بعد عقد البيعة لأخيه سعيد بالإمامة من قبل جميع القبائل، ولذا سافر سيف الى شرق أفريقيا على آمل ان تواتيه الفرصة؛ ليتمكن عن طريقها من الوصول إلى قلب الإمامة فى عمان .

هذا بالإضافة إلى انه عندما تقلد السيد سعيد بن سلطان إمامة عمان، استنجد به المسلمين فى شرق أفريقيا؛ لينقذهم من أطماع المزروعيين الذين بسطوا نفوذهم على المناطق الداخلية؛ لذا كان ذلك دافعاً له بأن يرسل قوات كبيرة إلى شرق أفريقيا ليس بقصد القضاء على محاولات أخيه سيف فحسب، وإنما بهدف تأكيدة للسيطرة العمانية على شرق أفريقيا وكللت جهود عمان بالنجاح، حينما أعلنت ممبسا بتبعيتها عام ١٧٨٥م لإمام عمان، ولقد أعقب ذلك توالى المقاطعات فى تلك الأنحاء فى تقديم ولائها، وبذلك تأكدت السيطرة العمانية من جديد على الشرق الأفريقى، بعد أن كانت تلك السيطرة على وشك الانهيار بسبب نفوذ أسرة المزروعى .

ومع ذلك فانه يجب أن نلاحظ أنه رغم جهود سعيد بن أحمد فى شرقى أفريقيا، وتأكيد السيطرة العمانية، ورغم اتجاه عمان إلى الشرق الأفريقى.. فإنه لم يثبت وجود سيطرة عمانية قوية فى تلك الجهات، وقد يكون ذلك من منطلق ان الإمامة البوسعيدية قد وجهت جل اهتمامها إلى توطيد اقدامها، وترسيخ نفوذها فى عمان، وتمسكهم بعاصمتهم الدينية مدينة الرستات، وعدم تفكيرهم فى الابتعاد عنها أو الانصراف إلى المناطق الأخرى. ومن هنا كان اتجاههم فى بادىء الامر إلى شرق أفريقيا لم يكن إلا اتجاهًا، ينحصر فى محاولة بسط السيادة العمانية على تلك الجهات، وبقاء العلاقات والصلات التجارية مع تلك الأنحاء إلى ما كانت عليه. ولذا فإن النفوذ العمانى لم يصل إلى الاعتبار، الذى يجعله يصمد للأحداث والإضطرابات، التى كانت لا تكاد تنقطع فى المقاطعات الأفريقية؛ فقد كانت ممبسا تتزعم الثورة والانفصال فى كل مرة، هذا حسب طبيعة تلك الإمارة؛ حيث كانت تتزعم الثورات منذ قدوم البرتغاليين إلى تلك الأنحاء ، ثم يتوالى انفصال المقاطعات والإمارات الأخرى، بعدها، بل واحدة تلو الأخرى، كما حدث فى عهد الإمام احمد بن سعيد، ثم فى عهد حلفه سعيد بن أحمد .

حتى اذ ما تولى سلطنة عمان الإمام سلطان بن أحمد، شقيق سعيد بن أحمد، حتى بدأت الدولة البوسعيدية العمانية تأخذ بعداً جديداً فى الاتجاه بقوة وحزم، نحو شرق أفريقيا، وذلك لممارسة السيطرة التامة فى تلك الأنحاء بطريقة فعالة وقوية ، بيد أن الظروف التى واجهها سلطان بن أحمد فى معالجة المشكلات، التى نتجت عن الطابع الجديد، الذى تحولت اليه الدولة، والتى لم تترك له الوقت الكافى للتفرغ تفرغاً تاماً لشرق أفريقيا، وإنما كان انصرافه للعلاقات الخارجية والسياسية لدولته اكثر وضوحاً .

وعندما تولى إمامة سلطنة عمان، السلطان سعيد بن سلطان بن احمد بن سعيد (١٨٠٦ - ١٨٥٦م)، واشتد التحول من الناحية الدينية إلى الناحية السياسية، فإنه بدأ يخطط لسياسة أفريقية واضحة ، وكان سعيد بن سلطان الذى بلغ الثلاثين من عمره صاحب عمان القوى، دون منازع، وبلغت بلاده أوج مجدها وقوتها، واستطاع للمرة الأولى عام ١٨٢٤م أن يخرج لأداء فريضة الحج فى مكة؛ حيث أرسل محمد على والى مصر بعثة لاستقباله، واسترعى حاكم عمان اهتمام العالم الإسلامى كله، واعتبره الناس أعظم حكام

عمان جميعًا، ولكن أطماع سعيد بن سلطان لم تقف عند حد ساحل بحر العرب، او عند حدود عمان، وإنما بدأ ينظر إلى ما وراء البحر إلى المجتمع العربى الإسلامى، فى شرق أفريقيا وشعر أنه اصبح من القوة؛ بحيث يستطيع أن يبسط نفوذه فى هذه الأرجاء. وعلى الرغم مما ذهب اليه بعض المؤرخون من ان اتجاه سعيد بن سلطان إلى شرق أفريقيا، كان محاولة منه للتخلص من المشكلات المتعددة، التى كانت تواجهه فى عمان، ولكن تلك الآراء لم تكن على جانب من الصواب؛ ذلك لأن اتخاذ سعيد بن سلطان لنفسه سياسة أفريقية، لم يكن لتبعده عن المشكلات العمانية، التى كان يفرغ لها جزءاً كبيراً من جهده، وإنما اتجاه سعيد ابن سلطان إلى شرق أفريقيا، كان يكمن فى حرصه البالغ على هذا الجزء من دولته بكثرة موارده، ووفرة خيراته، وزيادة فرصة استغلاله، إضافة إلى فرصة نشر الدعوة الإسلامية فى تلك الأرجاء، فضلاً عن أن الظروف التى آلت إليها الدولة فى عهده أو ازدياد تحولها من الناحية الدينية الزمنية، لم تكن مضطرة، كما اضطرت أسلافه من أئمة الدولة على البقاء فى إقليم عمان، ذى الطابع التقليدى، ووضح ذلك عند إقدامه على نقل العاصمة من الرستات إلى مسقط، ثم من مسقط إلى زنجبار عام ١٨٣٢م، وتفرغه إلى تكوين إمبراطورية عربية إسلامية فى شرق أفريقيا؛ ذلك لأنه فى الوقت الذى كان يؤدى فيه فريضة الحج فى مكة المكرمة، أعد السيد سعيد بن سلطان حملة إلى ممبسا، وكان واثقًا من أن القوى الأوروبية لن تعترض سبيله؛ فالفرنسيون الذين كانت تربطه بهم علاقة مودة، قد تحقق نفوذهم فى شرق أفريقيا، والبريطانيون قد اشتدت صلته بهم، بعد زوال الخطر الوهابى السعودى، ولكن سعيداً كان واهماً فيما تخيله عن سكوت البريطانيين عن مشروعاته، إذ كانوا فى هذا الوقت بالذات قد أخذوا يرنون بأبصارهم إلى شرق القارة الأفريقية، وإلى اهميتها الاقتصادية والاستراتيجية، وكان اهتمامهم راجعاً إلى محاربتهم تجارة الرقيق، التى أخذوا يتعقبونها فى القارة الأفريقية .

وهكذا فتح استيلاء السيد سعيد على ممبسا عام ١٨٣٧م عهد جديد فى تاريخ كل من عمان وزنجبار؛ ذلك لأنه نقل حاضرة إمامته إلى زنجبار، وبنى لنفسه قصراً فيها، ونقل بلاطه إليها عام ١٨٤٠م، وهكذا انتقل العرب بملكهم وسلطانهم إلى شرق أفريقيا، على مسافة تقدر بحوالى ٢,٥٠٠ ميل، بعيداً عن سواحل عمان، وتقف هنا عند عام ١٨٤٠، ونكتفى بهذا القدر من الحديث عن انتشار الإسلام فى منطقة شرق القارة الأفريقية

الجنوبية، أو ما أطلق عليه ساحل إقليم الزنج، والتى استطاعت أن تضم إليها جميع الموانى المهمة والجزر الساحلية، كما أنه استطاع أن يفرض العشور على التجارة الداخلية والخارجية ، وعلى هذا فقد صادف السلطان سعيد نجاحاً كبيراً فى شرق أفريقيا، على الرغم من أن عصره كان عصر الاستعمار الأوروبى الحديث، ومن ثم اتجهت الدول الأوروبية: ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وبريطانيا جميعها، إلى مصارعة السلطان المسلم فى هذه المنطقة، إضافة إلى النفوذ البلجيكى فى الداخل ، وبذلك اجتمعت خمس دول اوروبية؛ لكى تقضى على النفوذ الإسلامى العربى، فى شرق القارة الأفريقية؛ لكى تزيل الوجود العربى الإسلامى، الذى يشد رجاله رحالهم منذ آلاف السنين؛ لكى يختلطوا مع إخوانهم الآفارقة، سكان تلك الأنحاء من شعب البانتو، ولكى يظهر إلى الوجود ذلك الشعب، الذى اطلق عليه الشعب السواحيلى، الذى يعمر ويسكن تلك الأنحاء .

وتلك هى قصة الوجود العربى الإسلامى، وكيف سعى شعب الجزيرة العربية وإخوانه سكان فارس والهنود، إلى تلك الأنحاء، يرفعون راية الإسلام؛ لكى ينشرونها فى تلك الأرجاء، ولكى يدعو للدين الخالد بين هؤلاء الأقوام الأفارقة .

وهكذا إذا كانت الدعوة الإسلامية قد استطاعت ان تقيم دعائم الإسلام بين الأرجاء الواسعة من شرق القارة، قبل قدوم البرتغاليين.. فإن الوجود البرتغالى زهاء قرنين من الزمان، استطاع أن يحد من انطلاقة الدعوة الإسلامية، ولكن فوض الله سكان عمان؛ لكي يرسوا دعائم الدعوة الإسلامية من جديد، إلا أن هذه الانطلاقة الثانية لم يكتب لها النجاح أو التوفيق البعيد المدى ، فقد جاءت أساطيل الدول الأوروبية الحديثة: فرنسا ، ألمانيا ، إنجلترا؛ لكى تنضم إلى الوجود البرتغالى فى موزمبيق، وهكذا بدأت مرحلة جديدة من مراحل الضغط والوعد والوعيد، وأصبح مسلمو سلطنة زنجبار بين إنجلترا فى الشمال، والبرتغال فى الجنوب، وسيطر البرتغاليون على موزمبيق.. وهكذا انفسح المجال أمام التيار الصليبى الحديث؛ لكى يمارس دوره من جديد .